القَوسُ العَذراءُ

أبو فهر
محمود محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له وصلى الله

على محمد وعلى أبويه إبرهيم وإسمعيل

وسائر النبيين وسلم تسليما كثيرا

ذكرى

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُخْلَقَ في غُصْنِها
والدهر يروي سرها للأزل

وقبل أن ينتاب في عودها
تحت الندى الحي حصاد الأجل

سكنتها نايًا عميق المدى
يسقي الصدى من نبضه المشتعل

في الرِّيحِ .. أسمعتَ اللِّحاءَ الرهيَ

يَنوحُ في الأدْغالِ نَوْحَ الثَّمِلْ

وفي يدِ القوّاسِ .. كنتَ الّذي

تَنادمتْ فيهِ بَقايا أمَلْ

وفي يدِ الرّامي .. تردّى طائراً

يَرتادُ عنها كُلَّ صَيْدٍ غَفَلْ

وفي ضَميرِ العُشْبِ .. أنزلْتَها

مَنازلَ الوَحْيِ بخَطْوِ الرُّسُلْ

أنبتني غصناً، وأنطقني

لحناً جريح الشجو أنّى هدل

على رباب ملتحٍ.. عن

أوتار شعرٍ جديدٍ أطلّ

يرفُّ، ويزورُّ.. ويوحي الصدى

للصوت، والنور لو مضى أفل

ويترك الأمثال عن قصةٍ

فيها ليتيه النفس أشقى مثل

غنّيتها .. فانسحرت عالماً
مِن نغمةٍ في دنّها لم تزل

ذوّبتها نوراً .. وشفّفتها
عذراءَ .. في خُلْدٍ ضحاهُ أهلّ

تسقي بكفٍّ ما يشاءُ الهوى
وأُختها تسقي رحيقَ الأمل

كأسانِ في ناءٍ .. عصرتُ الصِّبا
في لحنِهِ ذكرى زمانٍ رحل

ماضٍ، وآتٍ، ومدًى أومضتْ
فيه رُؤى نفاحٍ من أزكى مشتعلْ

ما هي قوسٌ في يدَيْ نابلٍ ..
وإنما ألواحُ سِحْرٍ تَنْزِلْ!!

الخميس ١٦ من ذي القعدة ١٣٨٤هـ

محمد حسن إسماعيل

قوس الشماخ

الشمّاخُ بن ضِرَارٍ الغطفانيُّ :

واسمُه : مَعْقِل ، وكُنْيتُه : أبو سعيد . شاعرٌ فحلٌ ، صحابيٌّ أدرَكَ الجاهليَّة ثم أسلَم . وهو أحدُ عُورَانِ قيس الخمسةِ من فحول الشعر : ابن مُقْبِل ، والرَّاعى ، والشمّاخُ ، وابن أحمر ، وحُمَيْد بن ثَوْرٍ . وعَلَى عَوَره كان وصَّافًا ، أجادَ صِفَةَ حُمُر الوحشِ . أُنْشِدَ الوليد بن عبد الملِكِ شيئًا من شعره فى صِفتها فقال : « ما أوصَفَه لها ! إنّى لأحسَبُ أحَدَ أبَوَيْه كان حِمَارًا ! » وذلك لأنَّه كان يتدسَّسُ فى ضمائر الحُمر فينطقُها بما تكتُمُ ! غزا فى فتوح عُمَر رضى الله عنه ، وشهد القادسيَّة ، ثم غزَا أَذْرَبيجَانَ مع سعيد بن العاصِ ، فاستُشْهِد فى غزوةِ مُوقانَ ، سنة أربع وعشرين من الهجرة ، على عهد عثمان ، رضى الله عنهما .

(١) حلأها : طردها عن الماء ومنعها ، والضمير لحُمُر الوحش . وذو الأراكة : موضع ماء . والخُضْر : قبيلة منها عامر الخضريّ الرامي ، مُعَمَّر (رضي الله عنه) ، له حديث واحد عن رسول الله ﷺ ، له ترجمة في الإصابة لابن حجر ، وذكر أنّ حديثه رواه أحمد ، وغاب عني في المسند ، ولكن رواه أبو داود في السنن في كتاب الجنائز « باب الأمراض المكفِّرة للذنوب » .

(٢) التِّلاد : المال القديم الموروث . تارِز : الذي يبس في مكانه ومات .

(٣) الزُّرق : السهام في شدة بياضها . والرَّميُّ : المرميُّ . والنبع : شجر تُتَّخذ منه القِسي ، أصفر . والجلائز : عصب يُلْوَى على القوس ليشُدَّها من غير عيب بها .

١ ... فحلَّأها عَنْ ذِى الأَراكَةِ عَامِرٌ
أَخُو الخُضْرِ ، يَرْمِى حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

٢ قلِيلُ التِّلَادِ ، غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ ،
كَأَنَّ الّذِى يَرْمِى مِنَ الوَحْشِ ، تَارِزُ

٣ مُطِلًّا بزُرْقٍ مَا يُدَاوَى رَمِيُّهَــــا ،
وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ عَلَيْهَــا الجَلائِــزُ

(٤) الضال : شجر تُتَّخذ منه السهام كالنبع ، أصفر ، طيب الرائحة . الشَّذَب : الأغصان المتفرقة المتهدلة من الشجرة .

(٥) كَنَّها : سترها فى كِنٍّ . والغِيل : الشجر الملتف ، ويسكنه الأسد ويحميه . وشجر متلاحز : متضايق دخل بعضه فى بعض .

(٦) ينجُو : يقطع ما يؤذى . يَنْغَلُّ : يدخل فى شىء متلاحم على مشقة . بارز : ظاهر للشمس .

(٧) أنحَى عليها : قصد وأقبل يقطعها . وغُراب الفأس : حَدُّها المرهف . والعِضَاه : شجر عظيم ذو شوك . مشارز : شرس سيء الخلق .

٤ تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ
لَهَا شَذَبٌ من دُونِهَا وَحَوَاجِزُ

٥ نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنَّها ، فَٱسْتَوَتْ بِهِ ،
فَمَا دُونَهَا مِنْ غِيلِهَا مُتَلَاحِزُ

٦ فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ
وَيَنْغَلُّ .. ، حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ

٧ فَأَنحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، غُرَابُهَا
عَدُوٌّ لِأَوْسَاطِ العِضَاه مُشَارِزُ

(٨) ازْوَرَّ : مال وأعرض . من يُحَاوِز : من يخالطه من أصحابه الذين فى حوزته .

(٩) مَظَّعَها : وضعها فى حرِّ الشمس لتشرب ماء لحائها . واللِّحاء : قشر العود . وغمز العود : جسه ، لكى ينظر أين يُلَيِّنه ويقيمه .

(١٠) الثِّقاف : خشبة فى طرفها خَرْق يتسع للقوس ، فتدخل فيها وتغمز حتى تُسَوَّى . والطريدة : قصبة مجوَّفة خشنة الجوف تُدْخَل فيها القوس لتَبْرِى قشرتها . الدرء : العوج . والشَّمُوس : الفرس العصيةُ الجموح . والمهامز (جمع مِهْمَاز) : تنخس به الدواب لتستقيم . وتقويم ضغنها : تأديبها حتى يلين قيادها .

(١١) ذاق : جَذَبها ليختبر شدتها أو لينها . وَكَفِى : أى كافٍ لا يزيد عن الحاجة . ويُغْرِق السهم : أى يستوفى جذبها فيلين ، فربما قطع السهم يَدَ الرامى . يقول : لها حاجز من القوة والصلابة يمنع لينها أن يبلغ به الرامى إلى إغراق السهم .

٨ فَلَمَّا ٱطْمَأَنَّتْ فى يَدَيْه .. ، رَأَى غِنًى
أَحَاطَ بِهِ ، وَٱزْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ

٩ فَمَظَّعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا ،
وَيَنْظُرُ مِنْهَا : أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

١٠ أَقَامَ الثِّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرْأَهَا ،
كَمَا قَوَّمَتْ ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ

١١ وَذَاقَ .. ، فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِبًا
كَفَى – وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

(١٢) أنبض القوس : جذب وترها ، فإذا أطلقه نَبَض ورَنَّ . الثكلَى : التى مات ولدها . والجنائز (جمع جِنازة) : وهو الميت نفسه هنا .

(١٣) هَتوف : لها صوت عال . وحذف جواب « إذا » كأنه معلوم لاشك فيه ، أى إذا أصابه السهم مات على المكان . ريع : ذُعِر . وأسلمته : خذلته ولم تحمله . والنَّواقِز : قوائمه التى يَنْقُز بها ، أى يقفز .

(١٤) الزعفران : من الطيب ، أصفر ، من زينة النساء ولاسيما فى العرس . وتُميره : تصبّ فيه الماء لتذيبه . والخوازن : النساء التى تخزنه . والكوانز : التى تكنزه فى وعاء ، وأهل اليمن مشهورون ببيع العطر وصناعته .

(١٥) الأنداء (جمع نَدًى) : وهو بلل الصباح . أُشعِرت : أُلبست . والحبير : ثوب مُوَشًّى من الحرير الناعم . والمعاوز : الثياب الخَلِقَة يلبسها المساكين . لم تُدْرج : لم تُطْوَ عليها ، بل تصان بالحرير .

١٢ إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا ، تَرَنَّمَتْ
تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ

١٣ هَتُوفٌ .. ، إِذَا مَا خَالَطَ الظَّبْيَ سَهْمُهَا !
وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهُ النَّوَاقِزُ

١٤ كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تُمِيرُهُ
خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ

١٥ إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ ، صِينَتْ وَأُشْعِرَتْ
حَبِيرًا ، وَلَم تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ

(١٦) أهل المواسم : مجامع الناس فى زمن الحج . وبَيِّع : مشترٍ يحسن البيع والشراء . والسَّوْم : المساومة . ورائز : مختبر لشدتها وثِقَلها .

(١٧) هل تشتريها : هل تَبيعُها ؟ . والتِّلاد : المال القديم الموروث . والحرائز : التى تُحْرَز ولا تباع لنفاستها .

(١٨) الشرعبى : من أجود الثياب وأغلاها . والسيراء : ثياب مخططة نفيسة . أو أواقٍ : « أو » بمعنى واو العطف هنا ، والأواق (جمع أوقية) وهى من الموازين . ونواجز : حاضرة غير مؤجلة .

(١٩) ثمان : يعنى ثمانى أواق من الذهب . والكُورِىّ : منسوب إلى كور الصائغ الذى توقد فيه النار ، يعنى ذهبًا مصوغًا . أذكى النارَ : ألقى عليها ما تُذْكُو به ، أى تشتعل ويشتدُّ لَهَبُها . والخابز : صانع الخبز على النار .

١٦ فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ ، فَانْبَرَى
لَهَا بَيِّعٌ يُغْلِى بِهَا السَّوْمَ رَائِزُ

١٧ فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَشْتَرِيهَا ؟! فَإِنَّهَا
تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلَادُ الحَرَائِزُ !

١٨ فَقَالَ : إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ ، وَأَرْبَعٌ
مِنَ السِّيَرَاءِ ، أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ

١٩ ثَمَانٍ مِنَ الكُورِيِّ ، حُمْرٌ ، كَأَنَّهَا
مِنَ الجَمْرِ مَا أَذْكَى عَلَى النَّارِ خَابِزُ

(٢٠) بُرْدان : تثنية بُرْد ، والخال : موضع تصنع به الثياب النفيسة الرقيقة . وعلى ذاك : أى مع ذاك . والمقروظ : المدبوغ بالقَرَظ . والماعز : جلد المعزى ، وهو من أجودها .

(٢١) أميرها : الذى يؤامره ويشاوره . ويجاوز : يتركه ويمضى .

(٢٢) لاهز : دافع مانع .

(٢٣) شرأها : باعها . وحزاز : قاطع يحزُّ حزًّا شديدًا . والوَجد : أشد الحب وأحرُّه . وحامز : مُمِضٌّ مُحْرِق .

٢٠ وبُرْدانِ مِنْ خَالٍ ، وَتِسْعُونَ دِرْهمًا ،
عَلَى ذَاكَ مَقْرُوظٌ من الجِلْدِ مَاعِزُ

٢١ فَظَلَّ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَأَمِيرَهَا
أَيَأْتِي الَّذِي يُعْطَى بِهَا أَمْ يُجَاوِزُ

٢٢ فَقَالُوا لَهُ : بَايِعْ أَخَاكَ .. ، وَلَا يَكُنْ
لكَ اليَوْمَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لَاهِزُ

٢٣ فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَبْرَةً ،
وَفِي الصَّدْرِ حَزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ

القوسُ العذراءُ

(٣) أعوزه الأمر يُعْوِزُه : إذا اشتد عليه وعسر ، واحتاج إليه فلم يقدر عليه .

(٦) ينسرب : يجري سائلًا متتابعًا لا يكاد يحسه .

إلى صَدِيقٍ لا تَبْلَى مودَّتُه :

أمّا بَعْدُ ، فإنى لم أكن أتوقَّعُ يومئذٍ أن ألقاكَ ، وإذا
كنتَ قد أُوتيتَ حياءً يغلِبُك عند البَغْتَة على لسانك ، حتى
٣ يُعْوِزَك ما تقول ، فقد أُوتيتُ أنا ضَرْبًا ثَرثارًا من الحياء ،
يُطْلِق لِسانى أحيانًا ، عند البَغْتَة ، بما لا أحبُّ أن أقول ، وبما
لا أدرى كيف جاء ، ولِمَ قِيل ! كنتُ خليقًا يومئذٍ أن أقولَ
٦ غَيْرَ ما قلتُ ، ولكنِّى وجدتُ شيئًا مِنْك يَنْسَرِبُ فى نفسى
فيُثيرها ، حتى يدورَ حديثى كُلُّه على إتقانِ الأعمالِ التى
يُتاح للمرء أن يزاوِلَها — فى لَمْحةٍ خاطفةٍ من الدهر ، نُسمّيها
نحن الناسَ : العُمُر !! يا لَهُ من غُرُورٍ ! بَيْدَ أنّ هذا الحديث

أَبَى إلا أن ينقلبَ عائدًا معىَ فى الطريق ، يُسايرنى ، وَيُصَاحِبنى ، ويُؤْنس وَحْشتى ، ويُسِرُّ إلىّ بوَسْوسةٍ خفيّةٍ من أحاديثه التى لا تتشابَه ، والتى لا تَتَناهَى ، والتى هى أيضًا لا تُمَلُّ . وإذا كانتْ ثرثرةُ حياتى قد صَكّت مَسامِعَك ببعض عُنْفى وصَرَامتى ، فعسَى أن يبعثَ فى نفسك بعضَ الرضى ، ما أَرْوِيهِ لك من بقايَا تلك الأَحاديث ، التى رافقتْنى منذُ فارقتك ، إلى أن استقرّت بِىَ الدارُ ، ثم طارتْ عنّى إلى حيثُ يطير كُلُّ فِكْرٍ ، وغابتْ حيثُ يَغيب !

* * *

الإنسانُ خَلْقٌ عجيبٌ !! كلّ حَىٍّ ، بل كُلّ شىءٍ مخلوق ،

(١) النهج : الطريق المستقيم الواضح البين . واللاحب : الطريق الواسع الأملس ، لا يعوقك فى مسيرتك فيه شيء . والهَدْىُ : السيرة المستقيمة المؤدية إلى غاية لا تضلُّ عنها .

(٥) لا يتخلف : لا ينقطع عنها فيتأخر ، ويأتى فى غير موعده ومكانه . والذرة : النملة الصغيرة الحمراء ، النمال (جمع نملة) .

(٧) تقضى نحبها : تفرغ من عملها ، وتبلغ مدة أجلها .

(٨) تمرق : تخرقه وتخرج منه ضالة على وجهها .

(١٠) تحدث : تبتدع طريقًا مخالفًا لسنة خلقها .

١ يسيرُ على نَهْجٍ لَاحِبٍ لا يختلّ ، يُؤيِّده هَدْىٌ صادقٌ
لا يتبدَّل . ومهما تباينتْ مَسالكُهُ فى حياته ، وتنوعَّت
أعمالُه فى حِياطةِ مَعيشته ، فالنهْجُ فى كلّ دَرْبٍ من دُروبها
هُوَ هُوَ لا يتغيَّر ، والهَدْىُ فى كل شأن من شؤونها هو هو
٥ لا يتخلّفُ . تُولَدُ الذَّرَّةُ من النِّمال ، وتنمو ، وتبدأ سِيرَتها
فى الحياة ، وتعمل فيها عملَها الجِدَّ ، وتَفرُغ من حَقّ
٧ وجُودها ، ثم تَقْضى نَحْبَها وتموت . هكذا هى مُذْ كانت
٨ الأرضُ وكانت النِّمال : لا تتحوّل عن نَهْجٍ ، ولا تَمْرُق من
هَدْيٍ . وتاريخُ أُحْدثِها مِيلادًا فى مَعْمعة الحياة ، كتاريخ
١٠ أعْرَقِ أسْلافها هَلاكًا فى حَوْمةِ الفَنَاء . لا هى تُحْدِث
لنفسها نَهْجًا لم يكنْ ، ولا هى تبتدعُ لوارثها هَدْيًا لم يتقدَّمْ .

(٢) سَنَّ الطريقَ : بيَّنه ووطَّأه مستقيمًا إلى قصد معروف .

(٣) نسقًا : أى نظامًا متتابعًا متواترًا على سواء السبيل . منقادًا : سَلِسًا مفضيًا إلى نهايته .

(٤) التُّراث : الإرث الموروث . والمؤبَّد : الخالد منذ أبد الآبدين .

(٥) السُّنَّة : الطريقة والسيرة اللازمة .

(٦) المنهاج : المسلك الواضح . والغابر : الماضى . والشَّرَك : جادة الطريق لا تخفى معالمها ، لظهور آثار السائرين فيها ، فالسائر كأنه يهتدى فيها ويستقيم اضطرارًا .

فسَلْ كلّ حيٍّ : كيف تعملُ ؟ ولِمَ تعمَلُ ؟ ومَنِ الّذى
٢ عَلّمك وهَدَاك ؟ ومَنِ الإمامُ الّذى سَنَّ لك الطريق ؟ وبأىّ
٣ عبقريّة يأتى إبداعُك ؟ ولِمَ كان عملُك نَسَقًا مُنْقادًا لا يتغيّر ؟
٤ وكيف كَانتْ مهارتُك تُراثًا مُؤَبَّدًا لا يتبدّل ؟ وحِذْقُك طَبْعًا
٥ راسخًا لا يتحوّل ؟ ولم صارتْ سُنّة الأوائل منكم لِزَامًا على
٦ الأواخر ؟ ومِنْهاجُ الغابرين شَرَكًا للوارثين ؟ بل كيف أخطأ
الآخِرُ منكُمْ أن يَسْتدرِكَ عَلَى الأوّل ؟ والخَلَفُ أن يُنافس
صَنْعةَ السّلَف ؟ وعَجَبًا إذنْ ! كيف صارَ كُلّ عملٍ تَعْمَلُه
مُتْقنًا ، وأنت لم تَجْهَدْ فى إتقانه ؟ وأنّى بلغتَ فيه الغاية ، وأنتَ
مسلوبٌ كلّ تدبيرٍ ومَشيئة ؟ وما أنتَ وعملُك ؟ أتحبُّه وتألفُه ؟

(١) تَشْنَؤُه : تجده قبيحًا شنيعًا فتبغضه . وتُخامرك : تخالط نفسك فتغطّى على حسن تمييزك ، كما تفعل الخمر بالعقول .

(٨) مَدْرَج أوّله : دبيب آبائه الأوّلين عليها ، ودَرَج الصبي : دبَّ على الأرض ومشى مشيًا ضعيفًا .
(٩) الفَرَط : السابق المتقدم .

١ أم تَشْنَؤهُ وتسأَمُه ؟ أتُخامِرُك نَشْوة الإعجابِ بما أبدعتَ فيه ؟ أم تنتابُك لَوْعة الحُزْن إذا أصابه ما يُتْلِفُهُ أو يُؤْذيه ؟ ألم تسأَلْ نفسكَ قطُّ : فيمَ أعمَل ؟ ولِمَ خُلِقتُ ؟ وفيمَ أعيشُ ؟

وأنا على يقين من أنّك لن تسمَعَ جوابًا إلّا الصّمْتَ المُستَنكِرَ ، والذُّهولَ المُعْرِضَ ، والصَّمَم المُستَخِفَّ الذى لا يَعْبَأ .

* * *

إلّا الإنْسانُ !! إلّا الإنْسان !!

٨ ليتَ شِعْرِى كيف كَانَ مَدْرَجُ أوّله على أمّه الأرض ؟ وأىُّ

٩ هَدْيٍ كان لفَرَطه فى مَطْلَعِ الفجْر ؟

(١) سُدى : مهملًا غير مأمور ولا مَنْهِيٍّ مُسَدَّد . الهَمَل : الضال المتروك بلا بيان يهديه أو يحكمه .

(٢) النَّهْج الأوَّل والهَدْى القديم : هو الفِطْرة التى فَطَر الله عليها آدم وولده قبل اختلافِهم وضلالهم ، ونزول التكليف ، وبَعْثة الأنبياء .

(٤ – ٦) أنبط : استخرج الماء من بطن الأرض . الذخائر : (جمع ذخيرة) : وهو ما تخيرته فأخفيته ودفنته عن العيون . يستبحر : ينشق ويتسع ويصير كالبحر لا ينقطع ماؤه . السرائر (جمع سريرة) : وهو ما كان مكتومًا كالسرّ ، لا يعرف حتى تعلنه . والفتح : ما انفتح بعد استغلاق .

(٧) تأيَّد : صار ذا أَيْد وقوة وتمكُّن . تأثَّل : تقادم عهده وثبت أصله . عَمَر : عاش وبقى زمانًا طويلًا .

(٩) حاد : مال عنه وعدل إلى غيره . مَرَق : خَرَقه وخرج إلى ضلال المسالك .

١ إنّه ككلّ حيّ ، لم يُخْلَق سُدًى ولم يُتْرك هَمَلًا ، سلَك له
٢ ربُّه النَّهْجَ الأوّل حتى يتكاثَر ، وآتاهُ الهَدْىَ القديمَ حتّى
يَسْتَحْكِمَ ، وسدَّد يَدَيْه حتى يشتدَّ ، وأنارَ بَصِيرتَه حتى
٤ يَسْتَكمِل ، وأنْبطَ فيه ذخائر الفِطْرةِ حتى يَسْتبحِر ، وفَجَّرَ
فيه سَرائرَ الإتقان حتى يَسُودَ ويتملَّك ، وعلّمه البَيانَ حتى
يَسْتَفْهِمَ ، وكرَّمه بالفَتْح حتى يَتَغلَّب .

٧ فلمّا ثَبَتَ عليها وتأيَّد ، وتأثَّل فيها وعَمَر ، نَظَر إلى
معروفها فاعتَبَر ، وهجَم على مَجهولها فاستنكَرَ ، فكأنَّهُ من
٩ يومئذٍ حادَ عن النهج الذى لا يختَلّ ، ومَرَق من الهَدْى
الذى لا يتبدّل .

(١) تمرس : احتك بالشيء فأثر فيه . أسلم : ترك مخذولًا بلا هداية .

(٢) نزع : حن واشتاق .

(٤) احتفر : بذل الجهد فى الحفر . أكدى حافرُ البئر : إذا حفر فبلغ الصخور ، فقطعَ الحَفْرَ خيبة ويأسًا .

(٥) نبعتْ : انفجر منها الماء يَنبوعًا . ندَّت : نفرت هاربة واستصعبت . استقادت : خضعت وأعطته المقادة .

(١٠) جاشت نفسه : فارت وارتفعت . والصبابة : بقية الماء التى تصب .

١ ابتُلِىَ من يومئذٍ فتمَرَّس ، وأُسْلِم لمَشيئته فتحيَّر . جارَ
٢ وعَدَل ، فعرَف وجرَّبَ . أخطأً وأصاب ، ففكّر وتدبّر . نزعَ
إلى النَّهْج الأَوّل ، فأخفَق وأدرك . تاق إلى الهَدْى القديم ،
٤ فأُعْطِى وحُرِم . احتَفر ذخائر الفِطرة ، فأُكْدَتْ عليه تارَةً
٥ ونَبَعتْ . التمس شورادَ الإتقان ، فنَدّتْ عليه مرَّةً واستقَادتْ .
وإذا كلُّ صُنْعٍ يتقاضاه حَقَّ إحسانِه ، وكلُّ عملٍ يَحِنُّ به إلى
قَرارةِ إتْقانه . فعندئذٍ حاكَ الشكُّ فى صدْراللَّاحِقِ ، حتى قَدَح
فى تمام صُنْع السَّابِق ، فَاسْتدرَك عليه . وقلِقَ الوارثُ ، حتّى
خاف تقصيرَ الذاهب ، فاستنكفَ الإذعانَ إليه . فكذلك
١٠ جاشت نفسُه ، حتى اندفقت صُبَابةٌ منها فيما يعمل ، وتَضَرَّمَ

(١) الميسَم : أثر الوسم بالنار . تدلّه : ذهب عقله من الحب والهوى .

(٢) استجاد : وجد لذة جودته وحسنه .

(٣) الزهو : التيه والفخر والعظمة .

(٥) ختله : خدعه على حين غفلة .

(٦) عدت إليه : أسرعت إليه على حين بغتة . والنبوة : القلق الذى يمنع الاطمئنان .

(٧) أعلام (جمع عَلَم) : وهو المنار الذى يُنْصَب فى الطرق لهداية الشارين .

(٨) رَكَد البرقُ : سَكَن وميضُه . والبوارق (جمع بارقة) : وهى السحابة ذات البرق .

١ قلبُه حتى ترك مِيسَمَه فيما أنشأ ، فتدَلّه بصُنْع يديْه ، لأنّه
٢ استودعه طائفةً من نَفْسه ، وفُتِن بما استَجَاد منه ، لأنَّهُ أفْنَى
٣ فيه ضِرامًا من قلْبِهِ . وإذا هو يَسْتَخِفُّهُ الزَّهْوُ بما حَازَ منه
ومَلَك ، ويُضْنِيه الأَسَى عليه إذا ضاع أوْ هلَك .

٥ هذا هُوَ الإنسان وعملُه . فإذا دبَّت بينَهما جَفْوةٌ تَخْتِل
٦ النَّفسَ حتى تَمَلّ وتَسْأم ، أوْ عَدَتْ إليهما نَبْوَةٌ تُراوِدُ القلبَ
٧ حتى يَميل ويُعْرِضَ ، انطمستْ عندئذٍ أعْلامُ النهج الأوّل ،
٨ وركَدتْ بَوارِقُ الهَدْى المُتقَادِم ، وبقى الإنسانُ وحيدًا
مَلُومًا محسُورًا لا يزال يسأَل نفسَه : فيمَ أعملُ ؟ ولِمَ خُلِقتُ ؟
وفيمَ أعيش ؟

(٨) صافاه : أخلص له الحب ، وأعطاه صَفْوَ مودّته وهمّه .

فما يكون جوابُه إلّا حَيْرةً لا تهْدَأ ، ولهيبًا لا يَطْفَأ ، وظَلامًا لا يَنْقشِع .

* * *

بل حَسْبي وحسبُك . فلقد خشيتُ أن تقول لى :
إنّما أنتَ تحدّثنى عن الفنّ ، فهذه صِفة أهلِه = لا عن العمل ، فليس هذا من نَعْتِه ! وكأنّى بك قد قلتَ : إنّ الفنّ تَرَفٌ مُسْتَحْدَثٌ ، أمّا العملُ فشقاءٌ مُتَقادِم . هذا ممّا تعجّله الإنسانُ وعاناهُ لقَضاء حاجته ، وذاك ممّا تأنّى فيه وصافَاهُ للاستمتاع بلذّته . والإنسان إذا جوَّدَ العمل ، ٨ فمُنْتهَى هَمِّه أن يجعلَه على قضاءِ مآربه أعْوَنَ ، أو يكونَ له فى أسبابِ معيشته أنجَح وأربَح . أمّا الفنّ ، فثَمرةٌ لِغير

(١ ، ٢) المتأنّق : الذى يعمل الشىء بتجويد يأتى فيه بالعجب ، حبًا لما يعمل وإعجابًا به . ثرة : غزيرة الماء . لاعج : محرق يَسْتَعِرُ فى القلب ويترك فيه آثارًا .

(٤) ممتهن : مبتذل . ومذخور : يتخذه المرء ذخيرة يصطفيها ويضن بها .

(٥) فسق : خرج منها إلى الضلال . والتلاد : القديم الموروث الذى يولد معك .

(٦) استغواه : طلب غوايته وضلاله . وانسلخ : نزع نفسه منه . والركاز : أصله ، قِطَع الذهب والفضة المركوزة المدفونة فى باطن الأرض . والجبلة : الطبيعة الراسخة التى يبنى عليها الخُلُق .

(٧) يعتسفه : يركب طريقه بلا رويَّة ولا هداية ولا أناة .

(٩) الضراوة : اعتياد الشىء حتى لا يكاد المرء يصبر عنه . والنهمة : الشهوة التى تسوق النفس فلا تكاد تنتهى . انبتَّ : أتعب دابته فى السير حتى انقطعت بلا رجعة .

(١٠) الفلاة : الصحراء المنقطعة لا ماء بها ولا أنيس . مطموسة : دارسة لا أثر فيها .

(١) عضل : ضاق فلم يدخل ولم يخرج .

(٤) الخبء : المخبوء . التليد : القديم الموروث . استوى : بلغ غاية نمائه واعتدل .

(٥) استحصد : حان له أن يؤتى حصاده . يعتمله : يجاهد فى عمله .

(٧) يرفُّ : يبرق ويتلألأ .

(٩) يسفر : يشرق ويبين ويتوضح . والمدبُّ : موضع دبيب الأقدام .

(١٠) الدروس : ذهاب الآثار وامحاؤها . والعفاء : تراكم التراب الذى يطمس الآثار . استشرى البرق : تتابع لمعانه . والوميض : لمعان البرق فى نواحى الغيم .

(١١) يفصم : ينفصل عنه دون أن ينقطع السبب بينه وبين عمله .

١ شجرتِه ، يَسْقيها متأنِّق من ينابيعَ ثَرَّةٍ فى وُجْدانه ، ويُنْضِجُها مشغوفٌ بلاعِجٍ مِنْ وَجْده وٱفتتانِه ، فى غير مَخَافةٍ مَرْهوبة ، ولا مَنْفعةٍ مَجْلوبَة . فذاك إذنْ بطبيعته
٤ مُستْهلَكٌ مُمْتَهنٌ ، وهذا لحُرْمة نَشْأَتِه مَذْخورٌ مُكرَّم .

٥ وأقول : بل أنت تُحَدِّثُنِى عن الإنسان وقد فَسَق عن تِلاد
٦ فِطْرته ، وٱستَغْوَاه الشُّحّ حتى ٱنسلخ من رِكَازِ جِبِلَّتِه . غَرَّهُ
٧ ما أُوتِىَ من التدبير ، فاقتحم على غَيْبٍ مُدَبَّر ، يَعْتسِفُه بسَفاهة جُرأته . واستخفّه ما أُعِين به من المَشِيئة ، فهجَم
٩ على خيْرٍ مبذول ، يستكثِر منه بضَراوة نَهْمَته . فٱنْبَتَّ من
١٠ يومئِذٍ فى فَلاةٍ مَطْموسة بلا دَليل ، يَظَلُّ يكدَحُ فيها كدْحًا حتى يُنادَى للرَّحِيل !

١ جاءَ مُيَسَّرًا لشيء خُلِقَ له ، فظلمه حقّه حتى عَضِل
بأمره فتعسَّر ، وهُدِىَ مسدَّدًا إلى غاية ، فغفَل عنها حتى
تبدّد خَطوُه واختلّ . ولو دانَ الإنسانُ بالطاعة لفِطْرته
٤ المكنونة فيه منذُ وُلِد ، لأَفْضَى إلى خَبْئِها التَّليدِ إذا ما آستوَى
٥ نَبْتُه وآسْتحصَد . ولصارَ كلّ عمل يَعْتَمِلُه ، تدريبًا
لما استعْصَى منه حتَّى يلينَ ويَنْقادَ ، وتهذيبًا لما تراكَمَ فيه حتى
٧ يَرِفَّ ويتوهَّج . فإذا دَرِب عليه وصَبَر ، أزال الثَّرى عن نَبْعٍ
مُنْبثِق ، فإذا ألحّ ولم يَمَلَّ ، انشقَّت فِطْرتُه عن فَيْضٍ
٩ متدفّق . ويومئذ يُسْفِرُ لعَينيه مَدَبُّ النَّهْجِ الأوّل ، بعد
١٠ دُرُوسه وعَفائه ، ويَسْتَشْرى فى بَصيرته وَمِيضُ الهَدْى
١١ المتقادِم ، بعدَ رَكْدته وخفائِه . وإذا كلّ عملٍ يَفْصِمُ عنْه

(٣) الحشاشة : روح القلب ، ورَمَقُ حياة النفس .

(٤) الصبوة : الحنين الداعى إلى الميل مع الهوى .

(٦) الإرث : الأصل الموروث .

(٧) السليقة : الطبيعة التى لا تحتاج إلى تعلم . معرق : أصيل : له عروق ممتدة إلى أصوله .

(٨) عُرْضُ البشر : غِمَارهم وكثرتهم ، بلا تحديد أو تعيين .

مُتْقَنًا ، وكأنّه لم يجْهَد فى إتْقانِه ، وإذا هو مُشْرِفٌ فيه على
الغاية ، وكأنه مسلوبٌ كلَّ تدبيرٍ ومَشِيئة ، ولكنّه لا يَفْصِم
٣ عنه حين يفصِم ، إلّا مَطْوِيًّا على حُشَاشةٍ من سِرّ نَفْسه
٤ وحياته ، موسومًا بلَوْعةٍ مُتضرِّمة ، على صَبْوَةٍ فَنِيتْ فى
عِشْرته ومُعَاناته .

٦ فالعملُ كما ترَى ، هو فى إرْثِ طَبيعته فنٌّ مُتمكّن ،
٧ والإنسانُ بِسَليقة فِطْرَتِه فنَّان مُعْرِق .

* * *

٨ وإنّى لَمُحَدِّثك الآنَ عن رجُلٍ من عُرْضِ البشَر ،

(١) صابر : تكلّف معها الصبر على عَنَت ومشقة .

(٢) نَفَسًا : قليلا يُنَفِّس عنه .

(٦) توجست : تسمعت إلى صوته الخفى على خوف .

(٧) بَيْضة الصيف : شدة حَرِّه .

(٨) مَجْثَمُه : جثومه فى مكمنه لا يتحرك . والقُتْرةُ : حُفْرة الصائد يكمُنُ فيها . قليل التلاد : لا مال له موروث .

(٩) المِهاد : الموضع الذى يمهده لنفسه .

١ يَتَعَيَّشُ بكدِّ يَدَيْه ، صابَرَ الفاقةَ عامَيْنِ ، يعمَل عملًا يُفْلِتُ
٢ نَفَسًا من الغِنى إليه ، أغواهُ ثَراءٌ يَبْهرهُ ، فما كاد يُسْلِمه
للبَيْع حتى بكَى عليْه .

لم أعْرِفْهُ ، ولكن حدّثنى عنه رجُلٌ مِثْلُه عَمَلُه البَيان ،
ذاك فِطْرَتُه فى يَدَيه ، وهذا فِطْرَتُه فى اللِّسان .

* * *

٦ هذا عامرٌ أخو الخُضْر : توجَّسَتْ به الوحْشُ من
٧ عِرْفانها شدّةَ نِقْمته ، جاءتْ ظامئة فى بَيْضَةَ الصيف ،
٨ فراعَها مَجْثَمُهُ فى قُتْرته . قليلُ التِّلاد ، غيرَ قوسٍ وأَسْهُمٍ ،
٩ خفىُّ المِهَاد ، غيرَ مُقْلة تتضرَّم . تبيَّنَتْ لَمْحَ عَيْنيه ،

(١) شريعة الماء : الموضع الذى ينحدر إلى الماء .

(٥) الغِيلُ : الشجر الكثير الملتف . نَمَاها : رفعها وسوَّاها وانتسبَتْ إليه .

(٦) اجتباها : اختارها واصطفاها .

(٧) انغل : تغلغل بين شجرها . الحشا : الجَوف . الغيض : الشجر النابت بعضه فى أصول بعض .

(٨) أنحَى : وَجَّه وسَدَّد . اختلاها : جَزَّها وقطعها .

١ فانقلبَتْ عن شريعة الماءِ هاربة ، ذَكَرَتْ نِكاية مَرْمَاهُ ،
فآثرتْ مِيتَةَ الظَّمأ على فَتْكةِ الأسْهُم الصائبة .

وما عامرٌ وقَوْسُه ؟!

فَدَع الشَّمَّاخَ يُنبِئْكَ عن قوَّاسِها البَائِس في حَيْثُ أتَاهَا :

٥ أَيْن كانَتْ فِي ضَمِير الغَيْبِ مِنْ غِيلٍ نَمَاهَا ؟
٦ كَيْفَ شَقَّتْ عَيْنُهُ الحُجْبَ إليْها ، فَاجْتبَاهَا ؟
٧ كَيْفَ يَنْغَلُّ إلَيْهَا فِي حَشَا عِيصٍ وَقَاهَا ؟
٨ كَيْفَ أنْحى نَحْوَها مِبْرَاتَهُ ، حتَّى اخْتَلاهَا ؟
كَيْفَ قَرَّتْ فِي يَدَيْهِ ، وَاطْمَأنَّتْ لِفَتَاهَا ؟
كَيْفَ يَسْتَوْدِعُها الشَّمْسَ عامَيْن .. تَرَاهُ وَيَرَاهَا ؟

(١) اللِّحاء : قشر العود من الشجر .

(٤) ذَاقَ القوسَ : جذب وَتَرها لينظر ما شدتها .

(٨) يَهْمِي : يسقط ويسيل .

(٩) رَدَّاها : جعله لها رِداءً . والبَزّ : الثياب .

١ كَيْفَ ذَاقَ البُؤْسَ .. حَتَّى شَرِبَتْ مَاءَ لِحَاهَا ؟

كَيْفَ نَاجَتْهُ .. وَنَاجَاهَا .. فَلانَتْ .. فَلَوَاهَا ؟

كَيْفَ سَوَّاهَا .. وَسَوَّاهَا .. وَسَوَّاهَا .. فَقَامَتْ .. فَقَضَاهَا ؟

٤ كَيْفَ أَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ ، إِذَا ذَاقَ ، هَوَاهَا ؟

أَيُّ ثَكْلَى أَعْوَلَتْ إِذْ فَارَقَ السَّهْمُ حَشَاهَا ؟

كَيْفَ يُرْضِيهِ شَجَاهَا ؟ كَيْفَ يُصْغِي لِبُكَاهَا ؟

كَيْفَ رِيعَ الوَحْشُ مِنْ هَاتِفِ سَهْمٍ إِذْ رَمَاهَا ؟

٨ كَيْفَ يَخْشَى طَارِقًا ، فِي لَيْلَةٍ يَهْمِي نَدَاهَا ؟

٩ كَيْفَ رَدَّاهَا حَرِيرَ البَزِّ حِرْصًا وَكَسَاهَا ؟

كَيْفَ هَزَّتْهُ فَتَاهَا ؟ وَتَعَالَى وَتَبَاهَى ؟

(٧) سفاها : دعاء عليه بخسران نفسه .

(٩) ثياب الخال : ثياب رقيقة تصنع ببلدة الخال . العصب : برود كانت تصنع باليمن ، يعصب غزلها ويجمع ثم يصبغ فيأتي موشيًا ، لبقاء ما عُصِب منه أبيض لم يأخذه صبغ . والموشى : المختلط الألوان .

(١٠) الأديم : الجلد المدبوغ . المقروظ : المدبوغ بالقرظ . أربَى : زاد ماله وارتفع على ما يستحقه . شراها : باعها .

كَيْفَ وَافَى مَوْسِمَ الحَجِّ بِهَا ؟ .. مَاذَا دَهَاهَا ؟

أَيُّ عَيْنٍ لَمَحَتْ سِرَّهُمَا المُضْمَرَ ؟ .. بَلْ كَيْفَ رَآهَا ؟

آنبَرَى كَالصَّقْرِ يَنْقَضُّ إِلَيهَا .. فَأَتَاهَا !!

مَسَّهَا ذُو لَهْفَةٍ تَخْفَى .. ، وَإِنْ جَازَتْ مَدَاهَا

– قَالَ : سُبْحَانَ الَّذِى سَوَّى !! وَأَفْدِى مَنْ بَرَاهَا

أَنْتَ .. !! بِعْنِيهَا ..

٧ – نَعَمْ إِن شِئْتَ !! [تَعْسًا وَسَفَاهًا]

– قَالَ : بِالتِّبْرِ .. وَبِالفِضَّةِ ، بِالخَزِّ .. .. وَمَا شِئْتَ سِوَاهَا

٩ بِثِيَابِ الخَالِ .. بِالعَصْبِ المُوَشَّى .. أَتَرَاهَا ؟

١٠ وأَدِيمِ المَاعِزِ المَقْرُوظِ .. أَرْبَى مَنْ شَرَاهَا !

(٢) شاهَ الوجهُ : صار قبيحًا مشوَّهًا تكرهه النفسُ .

(٦) اشتراها : باعها .

(٧) تاهَ : من التِّيهِ ، وهو العُجْب والفَرَح .

[كيفَ قالَ الشَّيخُ ؟! .. كَلَّا ! إنَّها بَعْضِي ! والمَالُ ؟ بَلِ المَالُ فَدَاهَا

٢ إنَّها الفَاقَةُ والبُؤْسُ !! .. نَعَمْ ! .. هذا غِنًى !! .. كَلَّا وشَاهَا

بَلْ كَفَانِي فَاقَةً .. لا ! .. كَيْفَ أَنْسَاهَا ؟ .. وأَنَّى ؟! وَهَوَاهَا]

لَمْ يَكَدْ .. حَتَّى رَأَى نَاسًا ، وَهَمْسًا ، وَشِفَاهَا :

بَايِعِ الشَّيْخَ ! أَخَاكَ الشَّيْخَ ! .. قَدْ نِلْتَ رِضَاهَا !!

٦ إنَّهُ رِبْحٌ .. ! فَلَا يُفْلِتْكَ ! .. أَعْطَى ، وَاشْتَرَاهَا !

٧ وَرَأَى كَفَّيْهِ صِفْرًا ، وَرَأَى المَالَ .. فَتَاهَا

لَمْحَةً .. ، ثُمَّ تَجَلَّى الشَّكُّ عَنْهُ .. ، فَبَكَاهَا !

(٦) أستهلّ المطر : هَطَل واشتد انصبابه .

(٧) احتفلَ السيلُ : جاء بملْءِ جَنْبَي الوادى .

(٨) ابتزَّها : غلبها وغَصَبها وسلبها . والبلابلُ : وساوس القلب التى تضطرب فيه . الوَجَل : شدة الخوف .

(٩) مَثَلَ : انتصب قائما .

وَرَثَاها بدُموعٍ ، وَيْحَهُ ! كَيْفَ رَثَاهَا ؟!
فَتَوَلَّى .. وَسَعِيرَ النَّارِ يُخْفِى وَلَظَاهَا !
حَسْرَةٌ تُطْوَى عَلَى أُخْرَى .. ، فأَغْضَى .. وَطَوَاهَا !

* * *

فاسمعْ إذنْ صَدَى صوتِ الشّمّاخ :

تَجَاوَبُ عَنْهُ كُهُوفُ القُرُونِ ، تَرَدَّدَ فِيهَا كَأَنْ لم يَزَلْ
٦ وَأَوْفَى عَلَى القِمَمِ الشَّامِخَاتِ : جِبَالٌ مِنَ الشِّعْرِ مِنْهَا آسْتَهلّْ
٧ تَحَدَّرُ أَنْغامُهُ المُرْسَلاتُ ، أَنْغَامَ سَيْلٍ طَغَى وَآحْتَفَلْ
٨ رَأَى حُمُرَ الوَحْشِ ، فَآبْتَزَّهَا بِلَابِلَها منْ حَدِيثِ الوَجَلْ
٩ رَآهَا ظِمَاءً إِلَى مَوْرِدٍ ، فَفَزَّعَهَا عَنْهُ خَوْفٌ مَثَلْ

(٣) ذو الأراكة : موضع الماء . النَّهَل : أول الشرب عند ورد مناهل الماء .

(٤) حَلَّأْهَا : طردها عن الماء ومنعها الورود .

فَطَارَتْ سِرَاعًا إِلَى غَيْرِهِ ، بِعَدْوٍ تَضَرَّمَ حَتَّى ٱشْتَعَلْ
فَلَمْ تَدْنُ حَتَّى رَأَتْ صَائِدِينَ ، فَصَدَّتْ عَنِ المَوْتِ لَمَّا أَهَلّْ
٣ فَكَالبَرْقِ طَارَتْ إِلى مَأْمَنٍ عَلَى ذِى الأَرَاكَةِ صَافِى النَّهَلْ

٤ ... فَحَلَّأَهَا عَنْ ذِى الأَرَاكَةِ عَامِرٌ
أَخُو الخُضْرِ ، يَرْمِى حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

قَلِيلُ التِّلَادِ ، غَيرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ ؛
كَأَنَّ الَّذِى يَرْمِى مِنَ الوَحْشِ ، تَارِزُ

(٤) راجفات الحذر : التى تَرْجُف بالقلب ، حتى يضطرب اضطرابًا شديدًا .

(٥) لَواها : صَرَفَ وجوهها عن الشرب .

(٧) الخَصَاصة : الجوع والفقر والحاجة وسوء الحال . والبئيس : الفقير البائس الشديد البؤس .

(٨) مُستَنْهِضَاتِ الفِرار : التى تنهض به داعية الفرار .

مُطِلًّا بِزُرْقٍ مَا يُدَاوَى رَمِيُّهَا ،
وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ عَلَيْهَا الجَلَائِزُ

فكَيْفَ تَدَسَّسَ هذَا البَيَانُ حَتَّى رَأَى بِعُيُونِ الحُمُرْ ؟
٤ وَكَيْفَ تَغَلْغَلَ هذَا اللسَانُ وَبَيَّنَ عَنْ رَاجِفَاتِ الحَذَرْ ..

٥ .. لَوَاهَا عَنِ الرِّيِّ عِرْفَانُهَا أَخَا الخُضْرِ ، عِرْفَانَ مَنْ قَدْ عَقَلْ !
وَعَلَّمهَا أَيْن تُكْوَى الجُنُوبُ بنَارِ الطَّبِيبِ لِدَاءٍ نَزَلْ !
٧ وَأَنَّ الخَصَاصَةَ قَوْسُ البَئِيسِ ، إذا انْقَذَفَ السَّهْمُ عَنْها قَتَلْ !
٨ يُسَابِقُ مُسْتَنْهِضَاتِ الفِرَارِ فَيَقْتُلُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلْ !

(٣) صفراء : هى القوس لصفْرتها . فاقعة : خالصة اللون مُشْرِقة .

(٤) الحائمات : التى تحوم حول الماء عطاشًا . الحَتْفُ : الهلاك . أَظَلّ : دنا وقَرُب ، وألقى على الشىء ظِلّه .

فَيُدْرِكُهَا المَوْتُ مَغْرُوسَةً قَوائِمُها فى الثَّرَى .. ، لم تَزُلْ !
وَعَرَّفَهَا أَنَّهُنَّ السِّهَامُ : زُرْقٌ تَلَأْلأُ أَوْ تَشْتَعِلْ !
٣ وَصَفْرَاءُ فَاقِعَةٌ ، أَذْكَرَتْ مَصَارِعَ آبَائِهِنَّ الأُوَلْ
٤ سِهَامٌ تَرَى مَقْتَلَ الحَائِمَاتِ ، وقَوْسٌ تُطِلُّ بِحَتْفٍ أَظَلّْ !

تخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ
لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجِزُ

نَمَتْ فِى مَكَانٍ كَنَّهَا ، فَاسْتَوَتْ بِهِ ،
فَمَا دُونَهَا مِنْ غِيلِهَا مُتَلَاحِزُ

فمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ
وَيَنْغَلُّ .. ، حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ

فأَنْحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، غُرَابُهَا
عَدُوٌّ لِأَوْسَاطِ العِضَاهِ مُشَارِزُ

فَلَمَّا ٱطْمَأَنَّتْ فى يَدَيْهِ .. ، رَأَى غِنًى
أَحَاطَ بِهِ ، وٱزْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ

* * *

(٢) المنسدِلُ : الطويل المسترخي المُرْسَل .

(٣) عَضِلٌ : داهيةٌ منكر شديد الغَلَبة .

(٤) صلَّى : دعا وعظَّم الله وقدَّسه . هَلَّ : فرح وصاح .

(٥) الكِنُّ : المكان الذى يسترها ويحجبها عن العيون .

(٦) مُهَدَّلة : مُرْخاة متدلية . الأَسَل : نبات دقيق القضبان طويل شديد الاستواء .

(٧) يبيس : يابس . ذو شَوْكةٍ : ذو شَوْكٍ . أشرَطها نَفْسَهُ : أعدَّ لها نفسه ، إمّا أن ينالها أو يهلك ، غير مُبالٍ .

(٨) الباتر : القاطع كالسيف . انغَلَّ : تغلغل . المُخْتَبَل : الذاهب العقل .

(٩) يَحُتُّ اليبيس : يستأصل اليابس ويرميه . ويُرْدِى : يسقط الرطب . ويُغْمِضُ : يُوغِل .

(١٠) حَيَّهَلْ : كلمة تقال للحث والاستعجال .

تَخيَّرَهَا بَائِسٌ ، لَمْ يَزَلْ يُمَارِسُ أَمْثَالَهَا مُذْ عَقَلْ

٢ تَبَيَّنَهَا وَهْىَ مَحْجُوبَةٌ ، وَمِنْ دُونِهَا سِتْرُهَا المُنْسَدِلْ

٣ حَمَاهَا العُيُونَ فَأَخْطَأْنَهَا ، إِلَى أَنْ أَتَاهَا خَبِيرٌ عَضِلْ

٤ رَأَى غَادَةً نُشِّئَتْ فِى الظِّلَالِ ، ظِلَالِ النَّعِيمِ ، فَصَلَّى وهَلّْ

٥ فَنَادَتْه مِنْ كِنِّهَا فَآسْتَجَابَ : لَبَّيْكِ ! [يَا قَدَّها المُعْتَدِلْ !]

٦ سُتُورٌ مُهَدَّلَةٌ دُونَهَا ، وَحُرَّاسُها كَرِمَاحِ الأَسَلْ

٧ يَبِيسٌ ورَطْبٌ وَذُو شَوْكَةٍ !! فأَشْرَطَها نَفْسَهُ .. لم يُبَلْ

٨ وسَلَّ لِسَانًا من الباتِرَاتِ ، .. وَآنغَلَّ عاشِقُها المُخْتَبَلْ !!

٩ يَحُتُّ اليَبِيسَ ، ويُرْدِى الرِّطَابَ ، ويُغْمِضُ فى ظُلُماتٍ تُضِلّْ

١٠ فَهَتَّكَ أَسْتَارَهَا بارِزًا إلى الشَّمْسِ .. قد نَالَها ! حَيَّهَلْ !!

(١) أنحَى : وجْه ناحيتها . اللسانُ الحديدُ : هو البِبْراة الحادة القاطعة . خَصِيمٌ : شديد الخصومة . جَدِلٌ : شديد اللدد فى الخصومة .

(٢) شريسٌ : شديد الشراسة . عَتِيٌّ : طال تمرُّدُه وكِبْرُه . قديم الأجل : متقادم العمر .

(٣) الجذل : الفرح الذى يهز الأعطاف .

(٤) تَسْتَرِقُ : تسرق خَلْسةً مرةً بعد مرةٍ .

(٦) المُقْتَبَل : الذى سوف يستقبله .

(٧) الخُلَّة : الصداقة التى تتخلَّل النفسَ . آنفتل : انصرف عنه مُسْرِعًا مُعْرِضًا ، ولَوَى وجهه عنه .

١ فَأَنْحَى إِلَيْهَا اللِّسَانَ الحَدِيدَ يَبْرُقُ .. ، وَهْوَ خَصِيمٌ جَدِلْ

٢ عَدُوٌّ شرِيس ، لَهُ سَطْوَةٌ بكُلِّ عَتِيٍّ قَدِيمِ الأَجَلْ

٣ فَأَثْكَل أُمًّا غذَتْها النَّعيمَ ، ورَاحَ بِهَا وَهْوَ بَادِى الجَذَلْ

٤ فَلَمَّا آطْمَأَنَّتْ على رَاحَتَيْهِ ، وَعَيْنَاهُ تَسْتَرِقَانِ القُبَلْ

رَقَاهَا ، فأَحْيَى صَبَابَاتِها بتَعْوِيذَةٍ مِنْ خَفِيٍّ الغَزَلْ

٦ فَنَاجَتْه .. ، فَآهتزَّ مِنْ صَبْوةٍ ، وَمِنْ فَرَحٍ بِالغِنَى المُقْتَبَلْ

٧ وَأَعْرَضَ عَنْ كُلِّ ذِى خُلَّةٍ ، غِنًى بِالَّتِى حَازَهَا .. وَآنفَتَلْ ..

فَمَظَّعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا ،

وَيَنْظُرُ مِنْهَا : أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

(٣) اللِّحاء : قشر العود من الشجر . الخَضِلُ : الناعم الرطب الندىّ .

(٦) البَذَاذةُ : رَثَاثة الهيئة وسُوء الحال .

(٧) لَهِيف : شديد التَلهُّف والأسى مخافَةَ أن تتلف وقد أشرف على صنعها .

(٨) الهجير : شدّةُ الحرّ عند نُصف النهار .

(٩) تمحَّصَ : سقط عنها فخلصت منه واشتدت . أُمْلُودها : قوامها اللَّدْنُ الناعم .

أَقَامَ الثِّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرْأَهَا ،
كَمَا قَوَّمَتْ ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ

٣ مَعَ الشَّمْسِ عامَيْنِ .. حَتَّى تَجِفَّ وَتَشْرَبَ مَاءَ لِحَاءٍ خَضِلْ
وَفِي البُؤْسِ عامَيْنِ .. يَحْيَى لَهَا ، وَيُحْيِيهِ منها : الغِنَى وَالأَمَلْ
تَرَدَّدَ عَامَيْنِ .. مِنْ كَهْفِهِ إِلَى مَهْدِهَا ، عِنْدَ سَفْحِ الجَبَلْ
٦ يُغَنِّي لَهَا ، وَهُوَ بَادِي الشَّقاءِ ، بَادِي البَذاذَةِ ، حَتَّى هُزِلْ
٧ يُقَلِّبُهَا بِيَدَيْ مُشْفِقٍ ، لَهِيفٍ ، لَطِيفٍ ، رَفِيقٍ ، وَجِلْ
٨ يُعَرِّضَها لِلَهِيبِ الهَجِيرِ ، رَؤُوفًا بِهَا ، عَاكِفًا لا يَمَلّْ
٩ فَلَمَّا تَمَحَّصَ عَنْهَا النَّعِيمُ ، وَاشْتَدَّ أُمْلُودُهَا ، وَانْفَتَلْ

(١) النشوز : العصيان وترك الطاعة . والمُدِلّ : المفرطُ فى دَلَالِه ، كدلال المرأة على زوجها .

(٢) الثِّقَاف : حديدة فى طرفها خَرْق يتسع للقوس ، ليقوّم عِوَجها . الممتثل : المحتذى بالأمر الذى يؤمر به .

(٣) الجفلَ : ارتاعَ فارتدَّ مسرعًا .

(٥) الطريدة : قَصَبَةٌ مُجَوَّفة بقدر ما يلزم القوس ، فيها سَفَنٌ خشِن ، والسَّفَن (بفتحتين) هو ما يُسمَّى عندنا اليوم (السنفرة) ، وهى عامية .

(٦) مَحِلٌ : شديد المكر والقوة .

(٨) ريًا : ناعمة يَتْرُق فيها ماء الصَّفاء . جَفَلَ : ارتاع من حُسْنها .

(٩) استهلّت : تلألأت . ضِغْنُها : عُسْرها والتواؤها وصعوبة انقيادها . ابتهل : أخلص فى تسبيح الله .

١ عَصَتْهُ ، وَسَاءَتْهُ أَخْلَاقُهَا نُشُوزًا .. فَلَمَّا ٱلتَوَتْ كَالمُدِلّْ

٢ أَعَدَّ الثِّقَافَ لَهَا عاشِقٌ يُؤَدِّبُها أَدَبَ المُمْتَثِلْ

٣ وَعَضَّ عَلَيْها .. فَصَاحَتْ لَهُ ، فَأَشْفَقَ إِشْفَاقَةً ، وَانْجَفَلْ

فَجَسَّ ، فَغَاظَتْهُ وَٱسْتَغْلَظَتْ ، فَعَضَّ بِأُخْرَى ، فَلَمْ تَمْتَثِلْ

٥ فَأَلْقَى الثِّقَافَ .. ، وَأَوْصَى الطَّرِيدَةَ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِهَا ، لَا تَكِلّْ

٦ وَأَلْقَمَهَا قَدَّهَا ، فَأَنْبَرَتْ تُخَاشِنُها بِغَلِيظٍ مَحِلْ

يُجَرِّدُهَا مِنْ ثِيَابِ العِنَادِ ، وَمِنْ دِرْعِها الصَّعْبِ ، حَتَّى تَذِلّْ

٨ فَلَمَّا تَعَرَّتْ لَهُ حُرَّةً ، وَمَمْشُوقَةَ القَدِّ رَيًّا ، جَفَلْ

٩ وَسَبَّحَ لَمَّا ٱسْتَهَلَّتْ لَهُ ، وَلَانَ لَهُ ضِغْنُهَا .. وَٱبْتَهَلْ

وَذَاقَ .. ، فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِبًا
كَفَى – وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا ، تَرَنَّمَتْ
تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ

هَتُوفٌ .. ، إِذَا ما خَالَطَ الظَّبْيَ سَهْمُهَا !
وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْه النَّوَافِزُ

(٤) الحَصَانُ : الحرَّة الممتنعة التى تعف عن الريبة .

(٥) جَهِلَ : استنزله الشيطان واستخفه .

(٧) العَمِلُ : الذى يحسن العَمَل والحركة فيما يعمل .

(٨) أذْؤُب : (جمع ذئب) . أمُّها : هى الشجرة التى أخذت منها القوس .

(٩) على أربع : أى على أربع طاقاتٍ ، وهو أكرم للوتر وأقوى .

(١٠) حَنَّت : رجَّعت صوتها ترجيع المشتاق أو الباكى . المُضِلّ : الذى قد ضل عنه أحبابه أو فارقوه ، فهو يَنْشُدهم .

أَطَاعَتْهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَوَّعَتْهُ بِالوَجْدِ عَامَيْنِ حَتَّى نَحِلْ

يُزَلْزِلُهُ أَمَلٌ يَسْتَفِزُّ فِي قَيْدِ بُؤْسٍ يُمِيتُ الأَمَلْ

فَلَمَّا أَذَاقَتْهُ ، إِذْ ذَاقَهَا ، هَوًى أَضْمَرَتْهُ لَهُ لَمْ يَزَلْ

٤ تَبَيَّنَ ، إِذْ رَامَهَا ، حُرَّةً حَصَانًا ، تَعِفُّ فَلَا تُبْتَذَلْ

٥ تَلِينُ لِأَنْبَلِ عُشَّاقِهَا ، وَتَأْبَى عَلَيْهِ إِذَا مَا جَهِلْ

فَأَغْضَى حَيَاءً .. ، وَأَفْضَى بِهَا إِلَى كَهْفِهِ خَاطِفًا ، قَدْ عَجِلْ

٧ فَأَهْدَى لَهَا حِلْيَةً صَاغَهَا بِكَفَّيْهِ ، وَهْوَ الرَّفِيقُ العَمِلْ

٨ تَخَيَّرَهَا مِنْ حَشَا أَذْؤُبٍ ، رَآهَا لَدَى أُمِّهَا تَسْتَظِلّْ

٩ أَعَدَّ لَهَا وَتَرًا كَالشُّعَاعِ حُرًّا .. ، عَلَى أَرْبَعٍ قَدْ فُتِلْ

١٠ فَلَمَّا تَحَلَّتْ بِهِ ، مَسَّهَا فَحَنَّتْ حَنِينَ المَشُوقِ المُضِلّْ

(١) كفّلها : جعلها تكفُلُه وتضمّه إليها كالأم . الصغير من بنى أمها : هو أخوها السهم ، فإنهما من شجرة واحدة ، القوس والسهم أخوان .

(٤) أنْبضَ القوسَ : جذب وترَها ثم أرسله ، فيسمع له صوت كالبكاء .

(٥) أرنَّتْ : صاحت صياح النائحة الحزينة .

(٦) يُفَجِّعها : ينزل بها الفجيعة بعد الفجيعة .

(٧) أعْرَض الظَّبْىُ : أمكن الرامى من عُرْضِه ، أى جانبه .

(٨) قَفَّاه : تبعه وجاء بعده . اضمحلَّ : سقط وانقشع .

١ فَكَفَّلَهَا مِنْ بَنِي أُمِّها صَغِيرًا ، تَرَدَّى بِرِيشٍ كَمَلْ

لَهُ صَلْعَةٌ كَبَصِيصِ اللَّهِيبِ مِنْ جَمْرَةٍ حَيَّةٍ تَشْتَعِلْ

فَضَمَّتْ عَلَيْهِ الحَشَا رَحْمَةً ، وَكَادَتْ تُكَلِّمُهُ .. لَوْ عَقَلْ !

٤ فَجُنَّ جُنُونُ المُحِبِّ الغَيُورِ .. ، فَأَنْبَضَ عَنْهَا أَبِيٌّ بَطَلْ !

٥ أَرَنَّتْ تُبَكِّي أَخَاهَا الصَّغِيرَ : وَيْحِي !! أَخِي !! وَيْلَهُ !! أَيْنَ ضَلّْ

٦ فَظَلَّ يُفَجِّعُهَا : أَنْ تَرَى جَنَائِزَ إِخْوَتِهَا .. وَاثَكَلْ !

٧ فَأَعْرَضَ ظَبْيٌ فَنَادَى بِهِ أُخُوهَا .. ، وَنَادَتْهُ : هَا ! قَدْ قُتِلْ

٨ وَقَفَّاهُ ظَبْيٌ فَصَاحَتْ بِهِ .. ، فَخَارَتْ قَوَائِمُهُ .. ، فَاَضْمَحَلّْ

فَآبَا .. يُسَائِلُهَا : هَلْ رَضِيتِ بِثُكْلِ الأَحِبَّةِ ؟ قَالَتْ : أَجَلْ

(١) تُبَاذِلُ : تبذُلُ له من نفسه ما شاءَ ويبذُل لها ، (بالذال المعجمة) .

(٧) تناسمه : تهدى إليه نسيمها . والشذا : الرائحة الطيبة .

١ فَبَاتَا بلَيْلةٍ مَعْشُوقَةٍ تُبَادِلُ عَاشِقَهَا مَا سَأَلْ

كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تُمِيرُهُ
خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ

إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ ، صِينَتْ وَأُشْعِرَتْ
حَبِيرًا ، وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ

يُغَازِلُهَا ، وَهْىَ مُصْفَرَّةٌ ، عَلَيْهَا بَقِيَّةُ حُزْنٍ رَحَلْ
٧ تُنَاسِمُهُ عِطْرَها ، وَالشَّذَا شَذَا زَعْفَرانٍ عَتِيقِ الأَجَلْ

(٢) ساهَرها : بات معها ساهرًا . يزدهيه : يستخف لُبَّه . والعَرْفُ : الرائحة الطيبة يُعْرَف بها صاحبها .

(٤) العَيْبَةُ : وعاء من أَدَمٍ (جِلْد) تحفظ فيه الثياب . الخَمَلُ : هُدْبُ القطيفة وزِئْبِرُهَا . (أى : ما يعلو القطيفة من الهُدْب الناعم) .

(٦) قَرِيرٌ : قد أخذته قِرَّةُ البرد ، وهو أشدُّه . والسَّمَلُ : الثوب الخَلَقُ الدريس البالى .

تَوَارَثْنَهُ الغِيدُ يَكْنِزْنَهُ لِزِينَتِهِنَّ ، نَخفِيَّ المَحَلّْ

٢ فَسَاهَرَهَا ، يَزْدَهِيهِ الجَمَالُ وَيُسْكِرُهُ العَرْفُ ، حَتَّى ذَهَلْ

فَنَادَتْهُ ، وَيْحكَ ! أَهْلَكْتَنِى ! أَغِثْنِى .. هذَا النَّدَى قَدْ نَزَلْ

٤ فَطَارَ إِلَى عَيْبَةٍ ضُمِّنَتْ حَرِيرًا مُوَشًّى نَقِيَّ الخَمَلْ

كَسَاهَا حَفِيٌّ بِهَا عَاشِقٌ ! إِذَا أَفْرَطَ الحُبُّ يَوْمًا قَتَلْ

٦ فَأَلْبَسَها الدِّفْءَ ضِنًّا بِها .. وَبَاتَ قَرِيرًا .. عَلَيْه سَمَلْ !!

فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ ، فَانْبَرَى

لَهَا بَيِّعٌ يُغْلِى بِهَا السَّوْمَ رَائِزُ

فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَشْتَرِيهَا ؟! فَإِنَّهَا
تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلَادُ الحَرَائِزُ

فَقَالَ : إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ ، وَأَرْبَعٌ
مِنَ السِّيَرَاءِ ، أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ

ثَمَانٍ مِنَ الكُورِيِّ ، حُمْرٌ ، كَأَنَّهَا
مِنَ الجَمْرِ مَا أَذْكَى عَلَى النَّارِ خَابِزُ

وَبُرْدَانِ مِن خَالٍ ، وَتِسْعُونَ دِرْهَمًا ،
عَلَى ذَاكَ مَقْرُوظٌ مِنَ الجِلْدِ مَاعِزُ

(١) ثَمِلَ : أخذ فيه الشرابُ والسُّكْر .

(٤) أُمْنِيَة : أمان من الخوف . غواشى الوَجَل : ما يغشاه من المخاوف .

(٥) الوِهَادُ : الأرض المنخفضة . النّجَادُ : الأرض المرتفعة . القُلَل (جمع قُلَّة) : وهو رأس الجبل .

(٦) الصِّلُّ : حية تقتل إذا نهشت من ساعتها ، لا تنفع فيها الرقية .

(٧) البائدات الأُوَل : عادٌ وثمودُ (وهم عرب) وطَسْمٌ وجَدِيس وجُرْهُم ، وما باد من العرب العاربة .

١ تَمَتَّعَ دَهْرًا بأَيَّامِهَا وَلَيْلَاتِهَا نَاعِمًا قَدْ ثَمِلْ

يَرَاهَا ، عَلَى بُؤْسِهِ ، جَنَّةً تَدَلَّتْ بِأَثْمَارِهَا ، فَاسْتَظَلّْ

تُصَاحِبُهُ فِي هَجِيرِ القِفَارِ ، وَفِي ظُلَمِ اللَّيْلِ أَنَّى نَزَلْ

٤ فَيَحْرُسُهَا وَهْوَ فِي أَمْنَةٍ ، وَتَحْرُسُهُ فِي غَوَاشِي الوَجَلْ

٥ يَجُوبُ الوِهَادَ ، وَيَعْلُو النِّجادَ ، وَيَأْوِي الكُهُوفَ ، وَيَرْقَى القُلَلْ

٦ وَيُفْضِي إِلَى مُسْتَقَرِّ الحُتُوفِ : فِي دَارِ نِمْرٍ ، وَذِئْبٍ ، وَصِلّْ

٧ مَنَازِلَ عَادٍ ، وَأَشْقَى ثَمُودَ ، وحِمْيَرَ ، وَالبَائِدَاتِ الأُوَلْ

مَجاهِلَ مَا إِنْ بِهَا مِنْ أَنِيسٍ ، وَلَا رَسْمِ دَارٍ يُرَى أَوْ طَلَلْ

يُعَلِّمُهَا كَيْفَ كَانَ الزَّمَانُ ، وَمَجْدُ القَدِيمِ ، وكَيْفَ آنتَقَلْ !

وكَيْفَ تَسَاقَى بِهَا الأَوَّلُونَ رَحِيقَ الحَيَاةِ وَخَمْرَ الأَمَلْ !

(٣) الدُّمدمة : صوت مزعج يَرْجُف على الناس ويُطْبِق .

(٤) ساعٍ يَقَرُّ : بينا هو يسعى هنا وهناك ، إذ ثبت مكانه . ساقٍ : هو ساقى الخمر . أفَل : غاب وهوى .

(٧) الصديقُ ، والخِلُّ : يقال للمذكر والمؤنث جميعًا . والخِلَالةُ : الصداقة التى تتخلَّل النفوس .

وَأَيْنَ الأَخِلَّاءُ كَانُوا بِها يَجُرُّونَ ذَيْلَ الهَوَى وَالغَزَلْ !

وَمَلْكٌ تَعَالَى ، وَطَاغٍ عَتَا ، وَحُرٌّ أَبِى ، وَحَرِيصٌ غَفَلْ !

٣ فَدَمْدَمَ بَيْنَهُمُ صَارِخٌ : بَقَاءٌ قَلِيلٌ !! وَدُنْيَا دُوَلْ !!

٤ فَعَرْشٌ يَخِرُّ ، وَسَاعٍ يَقَرُّ ، وَسَاقٍ يَمِيلُ .. وَنَجْمٌ أَفَلْ !!

زَهِدْتُ إِلَيْكِ ! وَفَارَقْتُهُمْ : أَخِلَّاءَ عَهْدِ الصِّبَا وَالجَذَلْ

فَنِعْمَ الصَّدِيقُ ! وَنِعْمَ الخَلِيلُ ! وَنِعْمَ الأَنِيسُ .. وَنِعْمَ البَدَلْ !!

٧ صَدِيقٌ صَدَاقَتُها حُرَّةٌ ، وَخِلٌّ خِلَالَتُهَا لَا تُمَلّْ

وَغَابَا مَعًا عَنْ عُيُونِ الخُطُوبِ ، وَعَنْ كُلِّ وَاشٍ وَشَى أَوْ عَذَلْ

وَعَنْ فِتْنَةٍ تُذْهِلُ العَاشِقَيْنِ ، تُضِيءُ الدُّجَى لِدَبِيبِ المَلَلْ

(١) تَسْتَهِلُّ : ترفع الصوت إهلالًا بالحج ، وتلبيةً لله سبحانه .

(٢) أذانٌ من الله : هو ما أمر الله به إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : (وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) . المَهَلُ : الاستنظار والتؤدة .

(٥) ظِمَاء القَطَا : القَطا الوارد الماء . والقَطا : طائر كالحمام (أصغر منه) يقيم في الفيافي ، يطير طيرانًا سريعًا في طلب الماء ، ويبني أفحوصًا في الأرض ، ويبيض فيه بَيْضتين مُرَقَّطتين . مُحْتَفِل : فيه مَحافِل الناس ومجامعهم .

(٨) جافلة : مذعورة تكاد ترتدّ من الفَزَع . جذوة النار : الجمرة الملتهبة . المَقَل (جمع مُقْلَة) : وهي العينُ سوادُها وبياضُها .

(٩) الكاسر : من جوارح الطير الذي ضمَّ جناحين وانقضَّ . تقاذف : هَوَى على عجل . شَعَفات الجبل : رؤوسه وقممه .

١ وَطَالَ الزَّمَانُ ، فَحَنَّتْ بِهِ إِلَى الحَجِّ دَاعِيَةٌ تَسْتَهِلّْ
٢ أَذَانٌ مِنَ اللهِ ! كَيْفَ القَرَارُ ! وَأَيْنَ الفِرَارُ ؟ وَكَيْفَ المَهَلْ ؟
تُرَدِّدُهُ البِيدُ بَيْنَ الفِجَاجِ ، وَفَوْقَ الجِبَالِ ، وَعِنْدَ السُّبُلْ
أَصَاخَ لَهُ ، وَأَصَاخَتْ لَهُ ، وَلَبَّتْهُ فَامْتَثَلَتْ ، وَامْتَثَلْ
٥ وَطَارَا معًا كَظِمَاءِ القَطَا ، إِلَى مَوْرِدٍ زَاخِرٍ مُحْتَفِلْ
فَوَافَى المَوَاسِمَ ، فَاسْتَعْجَلَتْ تُسَائِلُهُ : مَنْ أَرَى ؟ .. أَيْن ضَلّْ ؟
أَسَرَّ إِلَيْها : أُولَاكِ الحَجِيجُ !! فَلَبِّي لِرَبٍّ تَعَالَى وجَلّْ

٨ وَنَادَتْهُ جَافِلَةً : مَا تَرَى ! أَجُذْوَةَ نَارٍ أَرَى أَمْ مُقَلْ ؟
٩ فَمَا كَادَ .. حَتَّى رَأَى كَاسِرًا تَقَاذَفَ مِنْ شَعَفَاتِ الجَبَلْ

(١) تَؤُجُّ : تتلهب ، ويسمع لتلهُّبها صوتٌ ، وهو أجيج النار . وتكفُّ : تمنعه وتحجزهُ .

(٤) المختِل : المخادع الذى يطلب غَفْلةَ الصيد .

(٧) تنكَّبَ القوسَ : وضعها على مَنْكِبه .

(٨) المُنْآد : المعوجُّ . اعتمل : جاهد فى عملها .

(٩) ماكرة : كلمة مكر .

١ يُدَانِي الخُطَا ، وَهْوَ نَارٌ تَؤُجُّ ، وَيُبْدِي أَنَاةً تَكُفُّ العَجَلْ

وَمَدَّ يَدًا لا تَرَاها العُيُونُ ، أَخْفَى إِذَا مَا سَرَتْ مِنْ أَجَلْ

وَنَظْرَةَ عَيْنٍ لَهَا رَوْعَةٌ ، تُخَالُ صَلِيلَ سُيُوفٍ تُسَلّْ

٤ فَلَمَّا أَهَلَّ وَأَلْقَى السَّلَامَ ، وَٱفْتَرَّ عَنْ بَسْمَةِ المُخْتَتِلْ

وَقَالَ : أَذِنْتَ ؟! وَيُمْنَى يَدَيْهِ تَمَسُّ أَنَامِلُهَا مَا سَأَلْ

رَأَى بَائِسًا مَا لَهُ حُرْمَةٌ تَكُفُّ أَذًى عنه .. ، بُؤْسٌ وذُلّْ

٧ وَقَالَ : فَدَيْتُكَ ! مَاذَا حَمَلْتَ ؟ وَمَاذَا تَنَكَّبْتَ يَاذَا الرَّجُلْ ؟!

٨ وَأَفْدِي الَّذِي قَدْ بَرَى عُودَهَا ، وَقَوَّمَ مُنْآدَها ، وَٱعْتَمَلْ !!

٩ فَهَزَّتْهُ مَاكِرَةٌ ، لم يَزَلْ يَتِيهُ بِهَا السَّمْعُ ، حَتَّى غَفَلْ

(١) المِحَالُ : الكيد والمكر الشديد الخفى . ذَليق اللسان : فصيح اللسان طَلِيقُه .

(٢) رازَ الشيءَ : وضعه فى كفه ليعرف ثقله وامتحنه . ومَعَاطف القوس : مقدار انعطافها إذا حَنَاها وشدَّ وترَها .

(٣) الهَبَلُ : ثُكْل الولد .

(٤) خالسها : نظر إليها خلسة . خفَّضَت : سكنت . الغَوارب : أعالى الموج . الجأش : رُوَاع القلب إذا اضطرب عند الفَزَع . الوَهَل : الفزع الملحق بالجنون .

(٩) رام الشيء يرومه : طلبه وأراده . التلاد : المال الموروث الذى ولد عندك . الجلل : الجليل العظيم القدر .

١ فأَسْلَمَهَا لِشَدِيد المِحَالِ ، ذَلِيقِ اللِّسَانِ ، خَفِيِّ الحِيَلْ

٢ فَلَمَّا تَرَامَتْ عَلَى رَاحَتَيْه ، وَرَازَ مَعَاطِفَهَا وَالثِّقَلْ

٣ دَعَتْ : يَا خَلِيلِيَ ! مَاذَا فَعَلْتَ ؟! أَأَسْلَمْتَنِي ؟! لِسِوَاكَ الهَبَلْ !!

٤ فَخَالَسَهَا نَظْرَةً خَفَّضَتْ غَوَارِبَ جَأْشٍ غَلَا بِالوَهَلْ

– وَقَالَ : لَكَ الخَيْرُ ! فَدَّيْتَنِي بِنَفْسِكَ !!

– بَارِي قِسِيٍّ !

– أَجَلْ !!

– فَبِعْنِي إِذَنْ !!

٩ – هِيَ أَغْلَى عَلَيَّ ، إِذَا رُمْتَهَا ، مِنْ تِلَادٍ جَلَلْ !

(٣) تشتريها : تبيعها .

(٦) البَخَلُ (بفتحتين) : هو البُخْل .

(٨) بَاسمها : نَظَر إليها نظرة سَخَرٍ مُبْتسِم .

(١٠) دهاك : أصابك بداهية . الخَبَلُ : الجنون .

– فَقَالَ : نَعَمْ ! لَكَ عِنْدِى الرِّضَى ، وَفَوْقَ الرِّضَى !

– [وَيْلَهُ مِنْ مُضِلٍّ !]

٣ – فَهَلْ تَشْتَرِيهَا ؟! ...

– نَعَمْ أَشْتَرِى !

– لَكَ الوَيْلُ مِثْلُكَ يَوْمًا بَخِلْ !

٦ – فَدَيْتُكَ !! أَعْطَيْتُ مَا تَشْتَهِيهِ ! .. مَا بِى فَقْرٌ ولا بِى بَخَلْ !

فَنَادَتْهُ ، وَيْحَكَ ! هَذَا الخَبِيثُ ! خُذْنِى إِلَيْكَ ، وَدَعْ مَا بَذَلْ

٨ فَبَاسَمَهَا نَظْرَةً .. ، ثُمَّ رَدَّ إِلَى الشَّيْخِ نَظْرَةَ سُخْرٍ مُطِلٍّ :

– بِكَمْ تَشْتَرِيهَا ؟! ...

١٠ فَصَاحَتْ بِهِ : حَذَارِ ! حَذَارِ ! دَهَاكَ الخَبَلْ !!

(١) نَضَحتْ : فَضَّتْ مَكْرَها كالعرق . دَع عنْك : احذر . تُغْتَفَل : تُؤْخَذُ من غَفْلتك .

(٢) الشَّرْعَبِيّ : ثياب جِيادٌ سابغةٌ . والسِّيَرَاء : بُرْدٌ فيه سيور يخالطها الحرير .

(٣) التِّجار (جمع تاجر) .

(٤) جَلاها : صَقَلها . الهِرَقْلِيُّ : الرومى ، نسبة إلى هِرَقْل الملك .

(٦) خالٍ : مكان تُصنع فيه البرود الجيدة .

(٨) الغدير : مكان يغادر السيل فيه بعض الماء . والوَشَل : الماء يتحلَّب من جبل أو صخرة ، يقطرُ قليلًا قليلًا ، لا يتَّصِلُ قَطْرُه .

١ لَهُ رَاحَةٌ نَضَحَتْ مَكْرَهَا عَلَيَّ ، فَدَعْ عَنْكَ ! لَا تُغْتَفَلْ

٢ – فَقَالَ : إِزَارٌ مِنَ الشَّرْعَبِيِّ ، وَأَرْبَعُ مِنْ سِيَرَاءِ الحُلَلْ
٣ بُرُودٌ تَضِنُّ بِهِنَّ التِّجَارُ إِذَا رَامَهُنَّ مَلِيكٌ أَجَلّْ
٤ وَمِنْ أَرْضِ قَيْصَرَ : حُمْرٌ ثَمَانٍ جَلَاهَا الهِرَقْلِيُّ ، مِثْلُ الشُّعَلْ
ثَمَانٍ ! تُضِيءُ عَلَيْكَ الدُّجَى ! إِذَا عَمِيَ النَّجْمُ ، نِعْمَ البَدَلْ !
٦ وَبُرْدَانِ من نَسْجِ خَالٍ ، أَشَفُّ وَأَنْعَمُ مِنْ خَدِّ عَذْرَاءِ .. ، بَلْ
إِذَا بُسِطَا تَحْتَ شَمْسِ النَّهَارِ ، فَالشَّمْسُ تَحْتَهُمَا .. ، لَيْسَ ظِلّْ
٨ وَتِسْعُونَ مِثْلُ عُيُونِ الجَرَادِ .. ، بَرَّاقَةٌ كَغَدِيرِ الوَشَلْ
كَمِرْآةِ حَسْنَاءَ مَفْتُونَةٍ ، كَرَأْسِ سِنَانٍ حَدِيثٍ صُقِلْ

(١) الأديم : الجلد المدبوغ اللين . الخُصَل (جمع خُصْلة) : وهي لفيفة من الشعر المجتمع .

(٣) غمغمةٌ : الكلام الذى لا يتبينه السامع . والنَّغْيَة : كلمة ذات نغمة . والزَّارى : العائب المظهر للاحتقار .

(٤) الإِسَارُ : الأَسْر . والسُّوَام : المساومة فى البيع . والشُّرَّاك (جمع شرك) : وهو حبالة الصائد يرتبك فيها الصيدُ . اُحْتُبِل : وقع فى حِبالة الصائد .

١ أَجَلْ .. !! وَأَدِيمٌ كَمِثْلِ الحَرِيرِ ، يُطْوَى وَيُرْسَلُ مِثْلَ الخُصَلْ

وَحَوْلَهُمَا زَفَرَاتُ الزِّحَامِ ، وَأُذْنٌ تَمِيلُ ، ورأْسٌ يُطِلّْ

٣ وغَمْغَمَةٌ ، وحَدِيثٌ خَفِيٌّ ، ونَغْيَةُ زَارٍ ، وآتٍ سَأَلْ

٤ وعَاشِقَةٌ فى إِسَارِ السُّوَامِ !! وعَاشِقُها فى الشَّرَاكِ آحْتَبَلْ

تُنَادِيه مَلْهُوفَةٌ تَسْتَغِيثُ ، ضَائِعَةُ الصَّوْتِ .. ، عَنْهَا شُغِلْ

فَظَلَّ يُناجِى نَفْسَهُ وَأَمِيرَهَا ،
أَيَأْتِى الَّذِى يُعْطَى بِهَا أَمْ يُجَاوِزُ
فَقَالُوا لَهُ : بَايِعْ أَخَاكَ .. ، وَلَا يَكُنْ
لَكَ اليَوْمَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لَاهِزُ

(٢) السُّورَة : المنزلةُ الرفيعةُ المشرقةُ الظاهرةُ . خَلَجَات الحَبل : ما يتجاذب المحبول من الاضطراب ، فتتفكك أوصاله ، ويتمايل يمنة ويسرة .

(٣) القِلَاتُ (جمع قَلْتٍ ، بسكون اللام) : نُقْرة فى الجبل يقطر فيها ماءٌ واشِلٌ من سقف أو كهف ، وهو أصفى ماء . والعِرْنين : أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين ، حيث يكون الشَّمَم ، وهو دليل على كرم الأصل .

(٤) الزاكى : النابت فى نعمة وخصب وكرم . نماهُ : جعله ناميًا ممتلئًا ناعمًا . والسَّراءُ : المروءة والسخاء والشرف .

(٧) كادَهُ بعقله : احتال عليه وغلب عقله . المَحِلُ : الشديدُ المكر والدهاء .

(٨) وَيْكَ : مثل ، ويلك ، تعجب وتهديد . السَّفَاهُ : السفهُ والطيش . الخِدينُ : الصديق المصاحب : والخِلُّ : الصديق المتداخل المودة .

[أَعُوذُ بِرَبِّى وَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ! .. مَاذَا يَقُولُ الرَّجُلْ ؟!

٢ أَجُنَّ ؟! نَعَمْ .. لَا ! .. أَرَى سُورَةً من العَقْل ، لا خَلَجَاتِ الخَبَلْ !

٣ وَعَيْنَىْ صَفَاءٍ كَمَاء القِلَاتِ ، وَعِرْنِينَ أَنْفٍ سَمَا وَاعتَدَلْ

٤ وَجَبْهَةَ زَاكٍ ، نَمَاهُ النَّعِيمُ فى سُؤْدُدٍ وَسَرَاءٍ نُبُلْ

أَيُعْطِى بِهَا المَالَ ؟! هَذَا الخَبَالُ ! قَوْسٌ وَمَالٌ كَهذَا ؟ ثُكِلْ !!

وَيَارَبِّ ! يَارَبِّ ! مَاذَا أَقُولُ ؟ .. أَقُولُ نَعَمْ ! . لَا ! فَهذَا خَطَلْ

٧ أَبِيعُ !! وَكَيْفَ ! .. لَقَدْ كَادَنِى بِعَقْلِى هَذَا الخَبِيثُ المَحِلْ

٨ أُفَارِقُها ! وَيْلَكَ !! هذَا السَّفَاهُ ! قَوْسِىَ ! كَلَّا ! خَدِينِى وخِلْ !!

أَجَلْ !! بَلْ هُوَ البُؤْسُ بَادٍ عَلَىَّ ! فَأَغْرَاهُ بِى ! وَيْحَهُ ! ما أَضَلّْ !!

يُسَاوِمُنِى المَالَ عَنْهَا ؟! نَعَمْ ! .. إِذَا لَبِسَ البُؤْسُ حُرًّا أَذَلّْ

(٣) النُّكْر : الدهاءُ المنكر الخبيث . اهْتَبَلَ الفُرْصَةَ : اغتنمها وَاقْتَرَصَهَا على غفلة .

(٥) السِّفَلُ (جمع سِفْلَة) : وهم أراذل الناس وسُقّاطهم .

(٨) حَبَاه : أعطاه فأكرمه . فاطر النيِّرات : المبتدىء خلق الكواكب المنيرة . وبارِي النباتِ : خالقه .

(١٠) الهُون : الهوان والخِزْى . والقُلّ : القلة والنقص .

إِذَا مَا مَشَى تَزْدَرِيهِ العُيُونُ ، وَإِنْ قَالَ رُدَّ كَأَنْ لَمْ يَقُلْ
نَعَمْ ! إِنَّهُ البُؤْسُ !! أَيْنَ المَفَرُّ مِنْ بَشَرٍ كَذِئَابِ الجَبَلْ ؟!
٣ ثَعَالِبُ نُكْرٍ تُجِيدُ النِّفَاقَ حَيْثُ تَرَى فُرْصَةً تُهْتَبَلْ
كِلَابٌ مُعَوَّدَةٌ لِلهَوَانِ تُبَصْبِصُ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ بَذَلْ
٥ فَوَيْحِي مِنَ البُؤْسِ ! .. وَيْلٌ لَهُمْ !! .. أَرَى المَالَ نُبْلًا يُعَلِّي السَّفَلْ
فَخُذْ مَا أُتِيتَ بِهِ .. !! إِنَّهُ مَلِيكٌ يُخَافُ ، وَرَبٌّ يُجَلّْ
وَسُبْحَانَ رَبِّي ! يَدِي ! مَا يَدِي ؟! بَرَيْتُ القِسِيَّ بِهَا لَمْ أَمَلّْ !
٨ حَبَانِي بِهَا فَاطِرُ النَّيِّرَاتِ ، وَبَارِي النَّبَاتِ ، وَمُرْسِي الجَبَلْ !
وَأَوْدَعَهَا سِرَّهَا عَالِمٌ خَبِيرٌ بِمَكْنُونِهَا لَمْ يَزَلْ !
١٠ وَفِي المَالِ عَوْنٌ عَلَى مِثْلِهَا ! وَفِي البُؤْسِ هُونٌ ، وَذُلٌّ ، وَقُلّْ !]

(٢) أَجَشُّ : فيه جُشَّة ، أى غلظ وبحة . صَلّ الصوت : إذا خالطته حِدَّة كأنها صوت حديد على الصفا .

(٣) آخْتُبِل : أخذه الخَبَل ، كالجنون المضطرب .

(٤) أَشْفَى : أشرف . يَسْتَقِلُّ : ينهض .

(٦) وَعْوَعة : صوت مختلط كوَعْوَعة الكلاب . والزَّجل : الجلبة كأصوات اللاعبين .

(٧) يَؤُجُّ : يُصوِّت بكلام مرتفع سريع . ويَعِجُّ : يصيح صياحًا عاليًا كالهدير . ويَخُور : يصيح بصوت غليظ كخُوَار الثَّور . وصَهَلَ : أخرج صوتًا مبحوحًا كصَهِيل الخيل .

(١٠) الحَشْرَجَةُ : غَرْغَرةُ المَيِّت ، وتَرَدُّد نَفَسِه .

تنادَوْا بِهِ : أَنْتَ ؟! مَاذا دَهَاك ؟! مالَكَ يَا شَيْخُ ؟! قُلْ يا رَجُلْ !

٢ وَآتٍ يَصِيحُ ، وَكَفٌّ تُشِيرُ ، وَصَوْتٌ أَجَشُّ ، وَصَوْتٌ يَصِلُّ !

٣ وَطَنَّتْ مَسَامِعُهُ طَنَّةً .. ، وَزَاغَتْ نَوَاظِرُهُ وَٱخْتَبَلْ

٤ وَأَفْضَى إِلَيْهِ كَهَمْسِ المَرِيضِ أُشْفِى عَلَى المَوْتِ مَا يَسْتَقِلُّ ..

تُنَادِيهِ : وَيْحَكَ ! وَيْحِى !! هَلَكْتُ !! أَتَوْكَ بِقَاصِمَةٍ ! وَاثَكَلْ !

٦ تَلَفَّتَ يُصْغِى .. ، وَمِثْلُ اللَّهِيبِ ضَوْضَاءُ وَغَوْغَةٍ فى زَجَلْ

٧ فهذَا يَؤُجُّ .. ، وَهذا يَعِجُّ .. ، وَهذا يَخُورُ .. ، وَهذا صَهَلْ !

وَدَانٍ يُسِرُّ .. ، وَدَاعٍ يَحُثُّ .. ، وَكَفٌّ تُرَبِّتُ : بِعْ يَا رَجُلْ !

لَقَدْ بَاعَ ! بِعْ ! بَاعَ ! لَا لَمْ يَبِعْ ! غِنَى المالِ ! وَيْحَكَ ! بِعْ يَا رَجُلْ !

١٠ [وَحَشْرَجَةُ المَوْتِ : خُذْنِى ... إِلَيكَ !!

– لَبَّيْكِ !! لبَّيْكِ !]

بِعْ يَا رَجُلْ !!

[أَغِثْنِي ! . أَجَلْ !]

بَاعَ ! ماذا ؟! أَباعَ ؟! نَعَمْ باعَ !! قَدْ بَاعَ ! حَقًّا فَعَلْ ؟!

[أَغِثْنِي ! أَغِثْنِي ! نَعَمْ !]

قَدْ رَبِحْتَ !! .. بُورِكَ مالُكَ !

أَيْنَ الرَّجُلْ ؟!

مَضَى ! ... أَيْنَ ! .. لا ، لَسْتُ أَدْرِي ! .. مَتَى ؟

لَقَدْ بِعْتَ ؟! ... كَلَّا وَكَلَّا ... أَجَلْ !

لَقَدْ بِعْتَ ! قَدْ بِعْتَ !

كَلَّا ! كَذَبْتَ !

لَقَدْ بِعْتَ ! قَدْ بَاعَ !

– وَيْحِي ! أَجَلْ

(٦) الحَمِيم : الماء الحارُّ . تَسْتَهِلُّ : تَنْصَبُّ .

(٧) لاعِجٌ : مُحْرِقٌ . الخَبَل : اضطرابُ الجنون .

(٨) غامَتْ : أصابَهما غيم كالسحاب . ويهطُلُ : يسيلُ متتابعًا .

(٩) هِيضَ : انكسر وتَدَلَّى . وٱعْتُقِل : حُبِس ومُنِعَ الكلام .

لَقَدْ بِعْتُهَا .. بِعْتُهَا .. بِعْتُهَا .. جُزِيتُمْ بِخَيْرِ جَزَاءٍ ، أَجَلْ !! ..
أَجَلْ . بِعْتُهَا .. بِعْتُهَا .. بِعْتُهَا !! أَجَلْ بِعْتُهَا !! لَا . أَجَلْ لَا . أَجَلْ

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتِ العَيْنُ عَبْرَةً ،
وَفِي الصَّدْرِ حَزَّازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ

[أَجَلْ .. لَا .. أَجَل بِعْتُهَا ! بِعْتُهَا ! .. أَجَلْ بِعْتُهَا ! بِعْتُهَا ! .. لَا .. أَجَلْ

٦ وَفَاضَتْ دُمُوعٌ كَمِثْلِ الحَمِيمِ ، لَذَّاعَةٌ ، نَارُهَا تَسْتَهِلُّ

٧ بُكَاءٌ مِنَ الجَمْرِ جَمْرِ القُلُوبِ ، أَرْسَلَهَا لَاعِجٌ مِنْ خَبَلْ

٨ وَغَامَتْ بِعَيْنَيْهِ ، وَٱسْتَنْزَفَتْ دَمَ القَلْبِ يَهْطِلُ فِيمَا هَطَلْ

٩ وَخَانِقَةٌ ذَبَحَتْ صَوْتَهُ ، وَهِيضَ اللِّسَانُ لَهَا وَٱعْتُقِلْ

(٢) تخاذل : تتخاذل ، يخذل بعضها بعضًا .

(٤) السُّوام : المساومة فى البيع . والأُرُوم : أَصْل الشجرة إذا ماتت وسقطت أغصانها . مَثَل : انتصب .

(٥) صَلُود : صُلْبٌ أملس . عُتُلٌّ : غليظ ثقيل ثابت .

(٦) الدَّبَى : الجرادُ قبل أن يطير . تَنَزَّى : تثب وتنفر . دهاه : غشيه وأصابه . والطَّلُّ : المطر الخفيف .

(٩) كَرْكَرَ الضاحك : ردَّد الضحك .

(١٠) السَّمْتُ : الهيأة .

وَأَغْضَى عَلَى ذِلَّةٍ مُطْرِقًا ، عَلَيْه مِنَ الهَمِّ مِثْلُ الجَبَلْ

٢ أَقَامَ .. ، وَمَا إِنْ بِهِ مِنْ حَرَاكٍ ، تَخَاذَلُ أَعْضَاؤُهُ كَالأَشَلّْ

وَفِي أُذُنَيْهِ ضَجِيجُ الزِّحَامِ ، وَ« بِعْ بَاعَ ، بِعْ بَاعَ ، بِعْ يَا رَجُلْ »!

٤ وَأَخْلَدَ فِي حَيْثُ طَارَ السُّوَامُ بِمُهْجَتِهِ ، كَأُرُومٍ مَثَلْ

٥ كَأَنْ صَخْرَةٌ نَبَتَتْ ، حَيْثُ قامَ ، تِمْثَالَ حُزْنٍ صَلُودٍ عُتُلّْ

٦ وَمِنْ حَوْلِهِ النَّاسُ مِثْلُ الدَّبَى عِجَالًا تَنَزَّى ، دَهَاهُنَّ طَلّْ

فَمِنْ قَائِلٍ : فَازَ ! رَدَّتْ عَلَيْهِ قَائِلَةٌ : لَيْتَهُ مَا فَعَلْ !

وَمِنْ هَامِسٍ : وَيْحَهُ ما دَهَاهُ ! وَمِنْ مُنْكِرٍ : كَيْفَ يَبْكِي الرَّجُلْ !

٩ وَمِنْ ضَاحِكٍ كَرْكَرَتْ ضَحْكَةٌ لَهُ مِنْ مَزُوحٍ خَبِيثٍ هَزَلْ

١٠ وَمِنْ سَاخِرٍ قَالَ : يَا آكِلًا ! تَلَبَّسَ فِي سَمْتِ مَنْ قَدْ أُكِلْ !

(١) هَيْنَمة : الكلامُ الخفيُّ كالدَّنْدَنة . غَمْغَمَتْ : اختلطت ولم تتبين .

(٣) الوَغَى : الصوت المتداخل كأصوات النحل المجتمع . يَصِلّ : يكون له صوت كأصوات أجواف الخيل إذا عَطِشَتْ .

(٤) أَسْفَرَ : أشرق . انجابَ : انكشف . المُخْبِتُ : الخاشع المتضائل .

(٥) سَبْتَةٌ : سكون وإطراقٌ بلا حراك .

(٦) الوَقِيذُ : المريض الدَّنِفُ المُشْفِي على الهلاك .

(٩) هَامٌ مُحلَّقة : رؤوس محلوقة . رُجَّفٌ (جمع راجف) : ترتجف وتضطرب . نَزِيعُ البَصَل : المنزوع بجذوره .

(١٠) أَغْرِبة (جمع غُراب) . حجل : يمشي مِشْيَةً قبيحةً ، وهي مِشْيَةُ الغراب .

١ وَمِنْ بَاسِطٍ كَفَّهُ كَالْمُعَزِّى ، وَهَيْنَمَةٍ غَمْغَمَتْ لَمْ تُقَلْ

وَمِنْ مُشْفِقٍ سَاقَ إِشْفَاقَهُ وَوَلَّى ، وَمُلْتَفِتٍ لَمْ يُوَلِّ

٣ وَسَالَتْ جُمُوعُهُمُ فِي الرِّمَالِ . . ، وَمَاتَ الوَغَى . . غَيْرَ حِسٍّ يَصِلْ

٤ وَأَسْفَرَ وَانْجَابَ دَاجِي السَّوَادِ عَنْ مُخْبِتٍ خَاشِعٍ كَالْمُصَلِّ

٥ وَظَلَّ طَوِيلًا .. لَهُ سَبْتَةٌ ، وَإِطْرَاقَةٌ ، وَأَسًى يَنْهَمِلْ

٦ أَفَاقَ وَقِيذًا ، بَطِيءَ الإِفَاقَةِ .. يَرْفَعُ مِنْ رَأْسِهِ كَالْمُطِلِّ

وَقَلَّبَ عَيْنَيْهِ : ماذَا يَرَى ؟ وَأَيْنَ الزِّحَامُ ؟ وَأَيْنَ الرَّجُلْ !

رَأَى الأَرْضَ تَمْشِي بِهِمْ كَالخَيَال ، أَشْبَاحُهُمْ خُشُبٌ تَنْتَقِلْ

٩ وَهَامٌ مُحَلَّقَةٌ رُجَّفٌ ، وَأُخْرَى بَدَتْ كَنَزِيعِ البَصَلْ

١٠ وَأَغْرِبَةٌ : بَعْضُهَا جَاثِمٌ يُحَرِّكُ رَأْسًا ، وَبَعْضٌ حَجَلْ

(١) الحيازيم (جمع حَيْزُوم) : وهو ما اكتنف الحُلْقُوم . والقُلَل : الرؤوس ، والحية تَفْعل ذلك وهى تَتَشَمَّس .
(٢) أَزْفَلَةٌ : الجماعة تأتى مسرعة . والضِّبَاع : من لئام الحيوان . تخْمَعُ : تعرج . هَمَلٌ : مهملة ملقاة .
(٣) الضِّباب تخرج من جحورها إذا دهمها السيل . مَرَقْنَ : خرجْنَ مسرعات كالسَّهم من الرميَّة (المَرْمِيَّة) . حفَل : احتفل بموجه .

(٥) السِّنَة : خفة النُّعاس .

(٦) الأَعْطَافُ (جمع عِطْف) : وهو الجانب ، من الرأس إلى الورك .

(٧) الكَبْلُ : القَيْدُ الضخم الثقيل . يختلجُ الشيء : ينتزعه . والغُلّ : القيد الذى يجمع الأيدى إلى الأعناق .
(٨) الناشط : الجاذب الدَّلو من البئر . والرِّشاء : حبل الدلو الطويل .

(٩) مُلَجْلجة : متردِّدة ثقيلة لا تكاد تخرج أو تدخل . هَلَلٌ : فَزَعٌ وفَرَقٌ ونُكُوص .

١ وَحَيَّاتُ وَادٍ ، لِشَمْسِ الضُّحَى تُلَوِّى حَيَازِيمَها وَالقُلَلْ

٢ وَأَزْفَلَةٌ مِنْ ضِبَاعِ الفَلَاةِ تَخْمَعُ مِنْ حَوْلِ قَتْلَى هَمَلْ

٣ وَهَنًّا وَهَنًّا ضِبَابٌ مَرَقْنَ مِنْ كُلِّ جُحْرٍ لسَيْلٍ حَفَلْ

وَثَوْبٌ يَطِيرُ بِلَا لَابِسٍ ، يَمِيلُ مَعَ الرِّيحِ أَنَّى تَمِلْ

٥ تَمَطَّى بِهِ البَعْثُ مِن نَعْسَةٍ ، وَمِنْ سِنَةٍ كَفُتُورِ الكَسَلْ

٦ وَدَبَّتْ إِلَيْه بَقَايَا الحَيَاةِ ، فَرَفَّعَ أَعْطَافَهُ وَٱعْتَدَلْ

٧ وَظَلَّ يُنَازِعُ كَبْلَ الذُّهُول ، وَيَخْتَلِجُ النَّفْسَ مِنْ أَسْرِ غُلّْ

٨ كَنَاشِطِ ثِقْلٍ طَوِيلِ الرِّشَاءِ مِنْ هُوَّةٍ فِى حَضِيضِ الجَبَلْ

٩ رُوَيْدًا ، رُوَيْدًا ، فَثَابَتْ لَهُ مُلَجْلَجَةً يَعْتَرِيهَا هَلَلْ

وَمِثْلَ الحَمَامَةِ بَيْنَ الضُّلُوعِ قَدِ ٱنْتَفَضَتْ مِنْ غَوَاشِى بَلَلْ

(١) رَكِينٌ : عالي الأركان ثقيل .

(٢) لأيًا بلأي : بعد مشقة وجهد وإبطاء واحتباس .

(٣) خامره : غشي نفسه . أبلّ : برأ من مرضه وأفاق .

(٦) تزهر : تتلألأ . تأتكل : تتوهّج كالنار إذا اشتدّ لهبها ، وأكل بعضها بعضًا .

(٧) انظر : البيت الثاني ص : ٥١ .

(٨) الغنى : ما أخذه من المال والمتاع ، فكان له غِنًى . انتحى : اعتزل ناحية .

١ يُقلِّبُ جُمْجُمَةً ، خالَها كَجُلْمُودِ صَخْرٍ رَكِينٍ حَجَلْ

٢ فَلأْيًا بِلأْيٍ ، وَآبَتْ لَهُ مُبَعْثَرَةً مِنْ أقاصِى العِلَلْ

٣ وَنَفَّسَ عَنْ صَدْرِهِ زَفْرَةً ، وَخامَرَهُ البُرْءُ حتَّى أَبَلّْ

أحَسَّ بِكَالجَمْرِ فِى رَاحَتَيْهِ : سَعِيرٌ تَوَقَّدَ !! مَاذَا آحْتَمَلْ ؟

وَيَبْسُطُ كَفَّيْهِ : مَاذَا أَرَى ؟ جَوَابٌ خَبِيثٌ ولَوْ لَمْ يَسَلْ !!

٦ عُيُونٌ تُحَمْلِقُ فى وَجْههِ ، مِنْ الخُبْثِ تَزْهَرُ أَوْ تَأْتَكِلْ !!

٧ [أَجَلْ بِعْتُهَا ؟ بِعْتُهَا ! بِعْتُهَا ! .. بَقَاءٌ قَلِيلٌ ، ودُنْيَا دُوَلْ !]

٨ وَأَلْقَى الغِنَى للثَّرَى ! وَآنْتَحَى ، وَنَفَّضَ كَفَّيْهِ : [حَسْبِى ! أَجَلْ]

(٢) الغُلَلُ (جمع غُلَّة) : وهى حرارة الحزن .

(٣) المُضْمَرَات : البعيدة التى يخفى مكانها . والغُيُوب (جمع غَيْب) : وهو الأرض المطمئنة ، التى يغيب فيها سالكها . والبلابلُ : قلِقات الهموم . والسِّجِلُّ : الكتاب أو الصَّكُّ الذى يطوى .

(٤) نوافذُ : ماضيات ، كالسهام تنفذ فى النفس . تَنْتَضِل : تترامى وتختصم .

(٩) تَدَجَّى : لبسه الظلام .

(١٠) الآية : العلامة العجيبة ، وهى يده . تَصَلَّ : طَفِئَ لونُها وذَهَب .

وَأَلْقَى إِلَى غالِيَاتِ الثِّيَابِ وَالبَزِّ نَظْرَةَ لَا مُحْتَفِلْ !

٢ وَوَلَّى كَئِيبًا ، ذَلِيلَ الخُطَا ، بَعِيدَ الأَنَاةِ ، خَفِيَّ الغُلَلْ !

٣ وأَوْغَل فِى مُضْمَرَاتِ الغُيُوبِ يَطْوِى البَلَابِلَ طَىَّ السِّجِلّ

٤ أَرَادَ لِيَنْسَى ، وَبَيْنَ الضُّلُوعِ نَوَافِذُ مِنْ ذِكَرٍ تَنْتَضِلْ

فَأَحْيَتْ صَبَابَتَهُ ، والجِرَاحُ دِمَاءٌ مُفَزَّعَةٌ لَمْ تَسِلْ

تُرِيهِ الرُّؤَى وَهْوَ حَىُّ النَّهارِ ، وَتَسْرِى بِهِ وَهْوَ لَمْ يَنْتَقِلْ

يُخَالِسُ مَنْكِبَهُ نَظْرَةً ، فتَلْفِتُهُ حَسْرَةٌ تَسْتَذِلّ

وَيَبْسُطُ كَفَّيْهِ مُسْتَغْرِقًا ، فَتَحْسَبُهُ قَارِئًا قَدْ ذَهِلْ

٩ يَرَى نِعْمَةً لَبِسَتْ نِقْمَةً ، وَنُورًا تَدَجَّى ، وَسِحْرًا بَطَلْ

١٠ وَآيَتَهُ عَاثَ فِيها الشُّحُوبُ فأَنكَرَ مِنْ لَوْنِها مَا نَصَلْ

(١) أسْرَارُ الكفِّ : خطوطها التى تدلُّ على المُغَيَّب من أسرارها .

(٢) السَّحْقُ : البالى المُنْسَحِق . تَهتَّك : تخرَّق وتساقط . الأدِيم : الجلد المدبوغ . النَّغِل : الذى فسد دِبَاغُه فتفتت وتَرَفَّت .

(٣) السَّنَا : الضوء العالى .

(٤) بَهِيمٌ : مظلم لا ضوء فيه ، ولا منْفَذ لبَصَر .

(٥) تَلَاوذُ : تدور كأنها تطلب ما تلوذ به . اللُّغز : الطريق الملتوى المشكل يضلُّ سالكُه . الداجى : الساتر ، الذى يلبَسُ ما فيه ويستره . والدَّغل : الشجر الملتف المشتبك النبت .

(٦) أسْوِدَة (جمع سَوَادٍ) : وهو شخص الشىء ، لأنه يرى من بعيد أسود . خَطِفَتْ : تسرع كالشعاع الخاطف .

(٧) هَدَلَ : غنّى غناء الحمام .

(٨) السُّدَفُ (جمع سُدْفَة) : ظلمةٌ مختلطة بضوء يَشُوبها . الضَّالُ : السِّدْر ينبت فى السهول ، تُسَوَّى من قضبانه السِّهَام .

١ وَأَسْرَارَهَا فَضَّهَا طَائِفٌ لَهُ سَطْوَةٌ وَأَذًى حَيْثُ حَلّْ

٢ وَسَحْقَ غِشَاءً عَلَى أَعْظُمٍ ، تَهَتَّكَ مِثْلَ الأَدِيمِ النَّغِلْ

٣ وَمَسَّتْ أَنامِلَهُ رَجْفَةٌ ، تَسَاقَطَ عَنْهَا سَنَاهَا وَزَلّْ

٤ وَأَفْضَى بِنَظْرَتِهِ نَافِذًا إِلَى غَيْبِ مَاضٍ بَهِيمِ السُّبُلْ

٥ تَلَاوَذُ أَشباحُهُ ، كَالدَّلِيلِ ، بِلُغْزٍ نَحِيلٍ ، وَدَاجِى دَغَلْ

٦ وَأَسْوِدَةٌ خَطِفَتْ فِى الظَلَام هَارِبَةٌ مِن صَيُودٍ خَتَلْ

٧ وَطَيْرًا مُرَوَّعَةً أَجْفَلَتْ ، وَآمِنَ طَيْرٍ وَدِيعٍ هَدَلْ

٨ وَشَقَّت لَهُ السُّدَفَ الغَاشِيَاتِ حَسْنَاءُ ضَالٍ عَلَيْهَا الحُلَلْ

أَضَاءَ الظَّلَامُ لَها بَغْتَةً ، وَقَوَّضَ خَيْمَتَهُ وَآرْتَحَلْ

أَطَلَّتْ لَهُ مِنْ خِلَالِ الغُصُونِ عَذْرَاءُ مَكْنُونَةٌ لَمْ تُنَلْ

(١) الكلل (جمع كِلّة) : وهى الستر الرقيق ، كالذى تكون فيه العروس .
وانظر البيت الرابع ص : ٤٠ .

(٣) المستوفز : هو القاعد إذا استقلّ على رجليه يتهيأ للقيام ، ولمّا يَسْتَوِ قائمًا بعدُ . تَلَظّى : التهب كاللّظى .

(٦) انظر : البيت الثالث ص : ٥١ .

١ «رَأَى غَادَةً نُشِّئَتْ فى الظِّلَالِ ، ظِلَالِ النَّعِيم» ، عَلَيْها الكِلَلْ
عَرُوسٌ تَمَايَلُ مُخْتَالَةً ، تُمِيتُ بِدَلٍّ ، وَتُحْيِى بِدَلّْ
٣ وَنَادَتْهُ ، فَارْتَدَّ مُسْتَوْفِزًا بِجُرْحٍ تَلَظَّى وَلَمْ يَنْدَمِلْ :
أَفِقْ ! قَدْ أَفَاقَ بِهِا العَاشِقُونَ قَبْلَكَ ، بَعْدَ أَسًى قَدْ قَتَلْ !
أَفِقْ ! يا خَلِيلِى ! أَفِقْ ! لَا تكُنْ حَلِيفَ الهُمُومِ ، صَرِيعَ العِلَلْ
٦ فَهذَا الزَّمَانُ ، وَهذِى الحَيَاةُ ، عَلَّمْتَنِيها قَدِيمًا : دُوَلْ !!
أَفِقْ ! لَا فَقَدْتُكَ ! مَاذَا دَهَاك ؟! تَمَتَّعْ ! تَمَتَّعْ بِها ! لا تُبَلْ !
بِصُنْعِ يَدَيْك تَرَانِى لَدَيْكَ ، فِى قَدِّ أُخْتِى ! وَنِعْمَ البَدَلْ !

(٣) انظر : البيت الثامن ص : ٥٩ .

(٤) استهل : رفع صوته بالإهلال والتلبية لله سبحانه . وانظر : البيت السابع ص : ٥٢ .

صَدَقْتِ ! صَدَقْتِ ! . وَأَيْنَ الشَّبَابُ ؟ وَأَيْنَ الوُلُوعُ ؟ وَأَيْنَ الأَمَلْ ؟

صَدَقْتِ صَدَقْتِ !! . . نَعَمْ قَدْ صَدَقْتُ ! وَسِرٌّ يَدَيْكَ كَأَنْ لَمْ يَزَلْ

٣ حَبَاكَ بِهِ فَاطِرُ النَّيِّرَاتِ ، وَبَارِي النَّبَاتِ ، وَمُرْسِي الجَبَلْ

٤ فَقُمْ ! وَٱسْتَهِلَّ ، وَسَبِّحْ لَهُ ! وَلَبِّ لِرَبٍّ تَعَالَى وَجَلّْ

... وَأستغْفِر الله ، فإلّا تكنْ رَضيتَ فقد أمْلَلْتك ، وَإذا أنا قد أسأتُ من حيثُ أردْتُ الإحْسان . ولكنَّكَ بعثتَ كَوامِنَ نفسى مُنْذ رأيتُك ، فتوسَّمْتُ وَجْهك ، وعرفتُ فيه شيئًا أخطأتُه فى وُجوه كثير من أهلِ زَماننا . فأحببتُ أن أعِظك وأعِظَ نفسى بنِعْمة الله على عباده ، إذ جَعَل بعضَهم لبعضٍ قُدْوةً وَعِبْرَةً ، وآتاهُم من مكنونِ عِلْمه ما لا يغفُلُ عَنْه إلّا هالكٌ ، ولا يُضَيِّعه إلّا مُستهينٌ لا يبالى . وقد بلَّغنَا رسول الله عن ربِّه بلاغًا يُضىءُ لكُلّ حىٍّ نَهْجَ حياتِه ، ويُمْسِكُ عليه هَدْىَ فِطْرته ، إذ قال : « إنّ الله يُحِبُّ إذَا عَمِل أَحَدُكُم عملًا أن يُتْقِنَه » وقال : « إنّ الله كتَبَ الإحْسانَ على كُلّ شىءٍ ، فإذَا قَتَلْتم فأحسِنُوا القِتْلة ،

وإذا ذَبَحْتُم فأَحْسِنُوا الذِّبْحة ، وَلْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَه ، ولْيُرِحْ ذَبِيحتَه » . فأنْظُر إلى أين كتب الله عَلَينا أن نبلُغَ فى إتقان ما نَصْنع ، وإحسانِ ما نَعْمَل !

اللهُمَّ إنَّا نسأَلُك الثباتَ فى الأَمْرِ ، والعزيمةَ على الرُّشْد ، والإتقانَ فى العَمَل ، والإحسانَ فيما نأتى وما نَذَر . ونَسْأَلُكَ مِنْ خير ما تَعْلم ، ونعوذُ بك من شَرِّ ما تعلم . ونسأَلُك قَلْبًا سَلِيمًا ، ولسانًا صادقًا ، وعملًا صالحًا ، وسَدادًا فى الخيرِ ، والسلامُ على مَن اتَّبع الهُدَى .

القاهرة : ١٧ ربيع الآخر سنة ١٣٧١ هـ
١٥ يناير سنة ١٩٥٢ م

من أخيك
أبو فهر
محمود محمد شاكر

... تلك هى قصيدة الشماخ ، بل تلك هى لؤلؤة من لآلىء الشّعر العربىّ القديم ، تتعاقب عليها العصور والحِقَبُ ، وهى حيث هى جِدّةً ولألاء .

استوحى الشماخ فى هذه القصيدة عاطفته ، فوصف قوسًا صنعها قوّاس ثم باعها ، فترقرقت تلك العاطفة بجداول الحب والحنان ، وترنمت بأصوات الزهو والاعتزاز ، واضطرمت بمارج اللوعة والأسى ، فى وصف ساحر بارع ، شَمَخ به الشماخ على عظماء الشعر ممن استلهموا الهياكل والجبال المقدسة .

وتذكّرنا قَوْسُ الشماخ بتُرْس أوميروس الذى صنعه

سادنُ النار المؤلّه للبطل أخيل ، وجعله أسطرلابًا للأفلاك وأجرام السماء ، ومحورًا للأرض وما تحويه من خلائق وكائنات . وفى كلا الوصفين من روائع الخيال ورقائق الفن ، ما لا يسلس زمامه إلا للنفس المحلقة والبيان المجنح . وكم لقصيدة الشماخ فى تراثنا الجليل من أشباه ونظائر ، لو نُزعت الغلالات عنها وجُليتْ للناس ، لتكوننّ الشاهد العدل على العبقرية العربية .

وليست الجوانب الفنية فى قصيدة الشماخ ، ولا العواطف النبيلة فيها ، ولا الصلات الروحية بين الفن وصاحبه ، ليس كل هذا هو الذى حدانا على كتابة هذه الكلمة ، بل دفعنا إليها اغتباطنا بأن نجد الفن مجازًا يصل

بين الأرواح المجندة ، وموضوعًا تجرى عليه رسائل الإخوان ، فترق على سبحات الفن إلى سموات الفكر وفراديس الأدب الخالد .

التقى صديقنا ، رفيق الصبا وخِدْن الشباب ، الأستاذ محمود محمد شاكر ، بصاحب دار المعارف شفيق متري ، ولم يكونا قد التقيا من قبل ، وتطرق الحديث بينهما إلى الكلام على العمل وتجويده ، والفن وسحر أواخيه ، فإذا بالرجلين روحان مؤتلفان متعارفان ، يقدر كل صاحبه ، ويكبر فيه الهمة الوثابة والهيام بالمثال الأعلى .

وشاء صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر أن يخلد ذلك

اللقاء برسالة يعبر فيها عن نظرته إلى الإنسان وإلى الفن ، فكانت قصيدة الشماخ هى المنفذ الذى نفذ منه إلى تصوير أعماق النفوس ، وإبراز المعانى التى مسّها الشماخ مسًّا رفيقًا ، فانقلبت صورًا حية ناطقة ، وأبانت عن مرامى الشعر وأهدافه ، وتألفت منهما ملحمة شعرية فريدة فى بابها ، تحتل مكانها من الشعر الإنسانى الخالد .

(مجلة الكتاب)　　　　　　　　عادل الغضبان

٥ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ
أول فبراير سنة ١٩٥٢ م

الناشر
دار المدني بجدة
ت ٦٧١٣٤٢٤ ص ب ١٨٤٨٥

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١